غِـزارُ الأدَب

الجزء الأول

إعـــداد

د. وهيب بن عبد الرحمن خوج

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

رقم الايداع ٣١٨٧ / ١٤٣٣ × ١٠ / ٤ / ١٤٣٣
ردمك ٥ – ٥ – ٩٠٣١٠ – ٦٠٣ – ٩٧٨

المقدمة

الحَمدُ للَّـهِ رَبِّ العَالَمِين ، الرَّحمَنِ الرَّحيم ، مَالِكِ يَومِ الدِّينِ ، وأَشهَدُ أن لا إلَهَ إلاَّ اللَّـهُ وَحدَهُ لا شَريكَ لَه ، مُغِيثُ المُستَغيثِينَ ، ومُجيبُ دَعوَةَ المُضطرِّينَ ، وجَابِرُ كَسرَ المُنكَسِرينَ ، ورَافِعُ البَلاءِ عن المُستَغفِرينَ . لا إلَهَ إلاَّ اللَّـهُ ! مُجيبُ الدَّعَواتِ ، وغَافِرُ الزَّلَّاتِ ، وفَارِجُ الكُرُباتِ ، ومُنَزِّلُ البَرَكَاتِ ، وغَادِقُ الخَيراتِ ، سُبحانَهُ مِن إلَهٍ كَريمٍ ، ورَبٍّ رَحيم ، عَمَّ بفَضلِهِ وكَرَمِهِ جَميعَ المَخلُوقاتِ . لا إلَهَ إلَّا اللَّـهُ الوَليُّ الحَميدُ ، لا إلَهَ إلاَّ اللَّـهُ يَفعَلُ مَا يَشَاءُ ويَحكُمُ ما يُريدُ ، سُبحانَ مَنْ يُعطي ويَمنَعُ ، ويَخفِضُ ويَرفَعُ ، ويَصِلُ ويَقطَعُ .

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١) .

اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ كُلُّهُ ، ولَكَ الشُّكرُ كُلُّهُ ، وإلَيكَ يُرجَعُ الأَمرُ كُلُّهُ ، عَلانيَتُهُ وسِرُّهُ ، فأَهْلٌ أَنتَ أَنْ تُحمَدَ ، وأَهْلٌ أَنتَ أَنْ تُعبَدَ ، وأَنتَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ .

لَكَ الحَمدُ كُلُّ الحَمدِ لا مَبدَأَ لَهُ ولا مُنْتَهَىً واللَّهُ بِالحَمدِ أَعلَمُ

وأَشهَدُ أَنَّ نَبيَّنا مُحمَّداً ﷺ عبدُ اللَّهِ ورَسُولُهُ ، ومُصطَفاهُ وخَليلُهُ ، خاتَمُ النَّبيِّينَ ، وإمَامُ المُرسَلينَ ، وسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ أجْمَعينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وعلَى آلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرينَ ، وصَحابَتِه الغُرِّ المَيامين ، والتَّابعين ومَن تَبعَهم بإحْسَانٍ إلى يَومِ الدِّينِ ، وسَلَّمَ تَسليماً كَثيراً .

---

(١) سورة هود : آية ٥٦ .

أمَّا بَعدُ : فلَيسَ أَروَعَ ولا أَجمَلَ في الحَياةِ الدُّنيا من كَلمَةِ الأدَبِ ؛ مُفْرداتُها شَفَّافةٌ ، عِبارَتُها رِقْراقَةٌ ، عَذبَةُ المَخارِجِ ، مُتدَفِّقةُ المَعاني ، وَضَّاءَةٌ ، مُشرِقَةٌ ، وهَّاجَةٌ ، اقْتَرَنَت بإضافَةِ التَّعريفِ إلى مُفرَدَةِ غِزَار ، فأضْفَت عليها جَمالاً وحُلَّةً ، أكسَبَتها وَشْيَ حُلِيَّ عَروسٍ ؛ تَزيَّنت ليَومِ عُرسِهَا ، فمَاذَا تَعنِي كَلمَةُ غِزَار ؟

هي : جَمعُ مُفرَدَةُ غَزير ، وتُجمَعُ على غَزَائرٍ كذَلكَ ، ويُقالُ : غَزُرَت النَّاقَةُ غَزَارَةً وغُزْراً وغَزْرًا، وهي تَعني الكَثرَةُ والوَفرَةُ، ويُقَالُ : مَعرُوفٌ غَزيرٌ : مُتَتابعٌ ، وأَنتُم مُغْزَرٌ بكُم ولَكُم : أي كَثيرةٌ أموالُكُم .

وأَغزَرَ القَومُ إغْزاراً : غَزُرَت إبلُهُم [1] . فغِزَارٌ ، مَعنىً تَنضَمُّ تَحتَ لِوَاءِ حُرُوفِه كُلُّ المَعاني القَويمَة ، كَلمَةٌ جَمعَت بحُرُوفِها اتِّسَاقَ الأدَبِ ، وارْتِفَاقَ الذَّوْقِ الرَّفيعِ .

(١) لسان العرب ، ابن مَنظُور .

أَخرَجَ ابنُ السَّمْعانيُّ بسَنَدٍ فيه مَقالٌ عن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قَالَ : «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي» (١) .

وأَخرَجَ الشِّيرازِيُّ في فَوائدِهِ ، وابنُ النَّجَّارِ عَن عَليِّ ابنِ أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قَالَ : «أَدِّبُوا أَوْلَادَكُم عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : حُبِّ نَبيِّكُم ، وحُبِّ أَهْلِ بَيتِهِ ، وقِراءَةِ القُرآنِ ، فَإنَّ حَمَلَةَ القُرآنِ في ظِلِّ يَوْمَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وأَصْفِيَائِهِ» (٢) .

وعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : «أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُم ، وأَحْسِنُوا آدَابَهُم» (٣) .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي ، المقاصد الحسنة للسخاوي .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي . وهو ضعيف .

(٣) سنن ابن ماجه ، والجامع الصغير للسيوطي . والحديث ضعيف وفيه نكارة .

وعن عَمرُو بنِ سَعيدِ بنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدَهُ أَفْضَلَ مِنْ أدَبٍ حَسَنٍ» (٦) .

ومَا وَرَّثَ وَالِدٌ وَلَدَهُ أَفْضَلَ مِنْ أدَبٍ ، ولَأَنْ يُؤدِّبَ أَحَدُكُم وَلَدَهُ خَيرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ كُلَّ يَومٍ بِصَاعٍ عَلَى مِسْكِينٍ» (٧) .

فالعَقلُ يَحتاجُ إلى مادَّةِ الأدَبِ كمَا تَحتاجُ الأبدَانُ إلى قُوتِهَا من الطَّعَامِ ، والأدَبُ كَنزٌ عندَ الحاجَةِ ، عَوْنٌ علَى المُروءَةِ ، صَاحِبٌ في المَجلِسِ ، أَنيسٌ في الوَحْدَةِ تَعمُرُ به القُلُوبُ الوَاهِيَةُ ، وتَحيَا به الأَلْبَابُ المَيِّتَةُ ، ويَنَالُ به الطَّالِبُونَ مَا حَاوَلُوا .

---

(٦) سنن الترمذي ، الترغيب والترهيب للمنذري ، السنن الكبرى للبيهقي . والحديث مقبولٌ بطرقه .

(٧) مجمع الزوائد للهيثمي . والحديث بهذا الطريق ضعيف .

وقد قِيلَ : عِلمٌ بِلَا أدَبٍ كشُجَاعٍ بِلَا سِلَاحٍ فالأدَبُ إذَا تَطمَّعتَ به نَجَعْ ، وإنْ تَعطَّرتَ به سَطَعْ ، وإنْ تَردَّيْتَ به نَفَعْ ، ومَنْ اكْتَسَبَ أدَباً اكْتَسَبَ نَسَباً ، والأدَبُ سَبَبٌ لمُلكِ الإرْبِ ، ولَقطَاتُ الأدَبِ قَرضاتُ الذَّهَبِ ، وأنَّ حُلِيَّ الرِّجَالِ فيمَا يُحسِنُونَه ، وحُلِيَّ النِّسَاءِ فيمَا يَلبَسُونَه .

تَكلَّمَ رَجُلٌ بَينَ يَدَي المَأمُونِ ، فأَحسَنَ ، فقَالَ لَه : «ابنُ مَنْ أَنتَ ؟» قال : «ابنُ الأدَبِ يا أَميرَ المُؤمِنينَ» ، قَالَ : نِعْمَ النَّسَبُ انْتَسَبتَ إلَيه . ولهذا قِيلَ : «المَرءُ من حَيثُ يَثبُتُ لا مِنْ حَيثُ يَنبُتُ ، ومِنْ حَيثُ يُوجَدُ لا مِنْ حَيثُ يُولَدُ» .

فمَا استَفادَ المَرءُ بَعدَ الإيمَانِ باللَّهِ ورَسُولِهِ من أدَبٍ يَتحَلَّى

به ؛ لأنَّه مَسْلَكُ الأنبياءِ ، وخُلُقُهُم وسَمتُهُم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، والأدَبُ هو الدِّينُ كُلُّه ؛ وحَقيقَتُهُ : استعْمَالُ الخُلُقِ الجَميلِ ، واستِخراجُ ما في الطَّبيعَةِ من الكَمَالِ ، من القُوَّةِ إلى الفِعْلِ ، ولقَدْ خَصَّ اللَّهُ بالفَلَاحِ مَنْ زَكَّى نَفسَهُ فنَمَّاهَا وعَلاَّهَا ، ورَفَعَهَا بآدَابِهِ التي أدَّبَ بها رُسُلَه وأنبياءَهُ وأَوْلِيَاءَهُ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (١) .

قَالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «أَدِّبُوهُمْ وعَلِّمُوهُم» (٢) .

(١) سورة التحريم ، الآية : ٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ، (٣٥٩/٤) .

وهَذه اللَّفظَةُ مُؤْذِنةٌ بالاجتِمَاعِ ؛ فالأدَبُ : اجْتِماعُ خِصَالِ الخَيرِ في العَبدِ معَ قَوْمٍ كِرامٍ فبِالأدَبِ يُفهَمُ العِلمُ ، وبالعِلمِ يَصِحُّ العَمَلُ ، وبالعَمَلِ تُنَالُ الحِكْمَةِ ، وبالحِكْمَةِ يُقَامُ الزُّهْدُ ، وبالزُّهْدِ تُتْرَكُ الدُّنيَا ، وبتَركِ الدُّنيا يُرغَبُ في الآخِرَةِ ، وبالرَّغبَةِ في الآخِرَةِ تُنالُ الرُّتبَةُ عندَ اللَّهِ تَعالَى .

فهَنيئاً لِـمَنْ عَمِلَ علَى تَزكِيَةِ عَقلِهِ بالأدَبِ ، كمَا تُزَكِّي النَّارُ الذَّهَبَ .

الأدَبُ أقرَبُ الطُّرُقِ إلى اللَّهِ ، فللَّهِ طَرائِقُ بعَدَدِ الأنفَاسِ ، وأقْرَبُ الطُّرُقِ إليه ، طُرُقِ الذُّلِّ والانْكِسَارِ ، وهمَا من أَجَلِّ خِصَالِ الأدَبِ . وأَنفَعُ طُرُقِ الأدَبِ : التَّفَقُّهُ في الدِّينِ ، والزُّهْدُ في الدُّنيا ، والمَعرِفَةُ بمَا للَّهِ عَلَيكَ .

أَدَبُ المَرءِ عُنوَانُ سَعادَتِهِ وفَلاحِهِ ، وقِلَّةُ أدَبِه عُنوَانُ شَقاوَتِه وبَوَارِهِ ، فمَا استُجلِبَ خَيرُ الدُّنيا والآخِرَةِ بمِثلِ الأدَبِ ، ولا اسْتُجلِبَ الشُّؤْمُ والحِرْمَانُ بمِثلِ سُوءِ الأدَبِ والخُلُقِ ، وتَأَمَّلْ أحْوَالَ كُلِّ شَقِيٍّ ومُغْتَرٍّ ومُدْبِرٍ ، كَيفَ تَجدُ قِلَّةَ الأدَبِ هي التي سَاقَتهُ إلى الحِرمَانِ .

قَالَ شَيخُ الإسْلَامِ عَبدُ اللَّهِ بنُ المُبَارَك : «مَنْ تَهَاوَنَ بالأدَبِ عُوقِبَ بحِرْمَانِ السُّنَنِ ، ومَنْ تَهَاوَنَ بالسُّنَنِ عُوقِبَ بحِرْمَانِ الفَرَائضِ ، ومَنْ تَهَاوَنَ بالفَرائِضِ عُوقِبَ بحِرْمَانِ المَعرِفَة» .

وقَالَ أبو عُثمَانَ : إذَا صَحَّتِ المَحَبَّةُ ، تَأكَّدَت علَى المُحِبِّ مُلَازَمَةُ الأدَبِ .

فمَنْ لَمْ يتَأَدَّبْ للوَقتِ ، فوَقتُهُ مَقْتٌ ، ومَنْ أعَانَ نَفسَهُ علَى هَوَاهَا ، فقد أَشْرَكَ في قَتلِ نَفسِهِ ؛ لأنَّ العُبُودِيَّةَ مُلازَمَةُ الأدَبِ ، والطُّغيَانُ سُوءُ الأدَبِ

فطُوبَى لِـمَنْ لَزِمَ الأدَبَ ظَاهِراً وبَاطِناً ، فمَا أَسَاءَ أَحَدٌ الأدَبَ ظَاهِراً إلاَّ عُوقِبَ ظَاهِراً ، ومَا أَسَاءَ أَحَدٌ الأدَبَ بَاطِناً إلاَّ عُوقِبَ بَاطِناً . وهذا دَأبُ العُلَمَاءِ والصَّادِقِينَ ، فكَانَ أحَدُهُم كأنَّما رَبَّتْهُ الأَنبياءُ مِمَّا يُرَى من حُسْنِ سَمتِهِ ، ورِعايَةِ خُلُقِه وعَمَلِه مع رَبِّهِ ، وصِيانَةٍ جَوَارِحِه عمَّا يُغضِبُ مَوْلاهُ .

قَالَ أبو عاصِم : سَمِعتُ سُفْيانَ الثَّوْرِيَّ يَقُولُ : «كَانَ الرَّجُلُ إذَا أرَادَ أَنْ يَكتُبَ الحَديثَ ، تَأدَّبَ وتَعبَّدَ قَبلَ ذَلِكَ بعِشْرينَ سَنةً . ولَـمَّا وَرَدَ أبو حَفْصٍ العِرَاقَ

جاءَ إلَيه الجُنَيدُ ، فرَأى أصْحَابَ أبي حَفصٍ وُقُوفًا علَى رَأسِهِ يَأتَمِرُونَ بأَمرِهِ ، لا يُخطِئُ أحَدٌ مِنهُم ، فقَالَ : يا أبا حَفْصٍ ، أدَّبتَ أصْحَابَكَ أدَبَ المُلُوكِ ، فقَالَ : لا يا أبا القَاسِمِ ، ولَكِنْ حُسْنُ الأدَبِ في الظَّاهِرِ عُنوَانُ الأدَبِ في البَاطِنِ . وهَذَا كَمَا قَالَ أنَسُ بنُ مَالِكٍ : «الأدَبُ في العَمَلِ عَلامَةُ قَبُولِ العَمَلِ» .

فيَا لَائِمِي دَعْنِي أُغَالي بِقِيمَتِي ... فَقِيمَةُ كُلِّ النَّاسِ مَا يُحْسِنُونَه
كُنْ الفَتَى مَنْ شِئْتَ واكْتَسِبْ أدَباً ... يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنْ النَّسَبِ
إنَّ الفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أنَا ذَا ... لَيْسَ الفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

الأدَبُ في الدِّينِ ، هو الوُقُوفُ في الوَسَطِ بَينَ الطَّرَفَينِ ، فَلا يُقصِّرُ بحُدُودِ الشَّرعِ عن تَمامِهَا ، ولا

يَتَجَاوَزُ بِهَا مَا جُعِلَتْ حُدُوداً لَه ؛ فكِلاهُمَا عَدُوَّانِ ، واللَّهُ لا يُحِبُّ المُعتَدينَ ، والعُدْوَانُ هُوَ سُوءُ الأدَبِ .

فحَقيقَةُ الأدَبِ : هي العَدلُ والتَّوَسُّطُ في الأُمُورِ كُلِّهَا ، وأَرفَعُ هذه الآدَابِ مَا تَحلَّى به المُسلِمُ ، وتَخلَّقَ به العَبدُ المُؤمِنُ في الظَّاهِرِ والبَاطِنِ ، فأدَبُ الخِدمَةِ أعَزُّ من الخِدمَةِ ، فمَنْ خَرَجَ عن استِعْمالِ الأدَبِ ، فإنَّه يَرجِعُ مِنْ حَيثُ جَاءَ .

فقَالَ المَوْلَى سُبحانَهُ في شَأنِ مَنْ تَأدَّبَ بأدَبِه سُبحانَهُ مُثْنِياً عَلَيهِم : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ

إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ
وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾
وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ (١) .

وقَالَ سُبحانَه : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا
مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾
وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ (٢) .

---

(١) سورة الفرقان ، الآيات : ٦٣-٦٨ .

(٢) سورة الفرقان ، الآيات : ٧٢-٧٤ .

قَالَ ابنُ عَطاءٍ : النَّفسُ مَجبُولَةٌ على سُوءِ الأدَبِ ، والعَبدُ مَأمُورٌ بمُلازَمَةِ الأدَبِ ، والنَّفسُ تَجرِي بطِبَاعِهَا في مَيْدَانِ المُخالَفَةِ ، والعَبدُ يَرُدُّهَا بجَهْدِهِ إلى حُسنِ المُطالَبَة ، فمَنْ أَعرَضَ عن الجَهْدِ ، فقَد أَطلَقَ عَنَانَ النَّفسِ وغَفَلَ عن الرِّعَايَةِ ، ومَهْما أعَانَهَا ، فهُو شَريكُهَا .

وإذَا تَرَقَّتِ بِهِ عَزَائِمُهُ إلَى الثُّرَيَّا رَسَا بِهِ الأدَبُ

ومُحَصِّلُ الأدَبِ ، مَنْ تَحقَّقَت فيه أَنوَاعُ الأدَبِ ، وبَلَغَ الكَمَالَ فيهَا ، ومَنْ تَرقَّى في دَرَجَاتِ الأدَبِ مِنْ دَرَجَةٍ إلى دَرَجَةٍ .

والأدَبُ أَنوَاعٌ ؛ فهو أدَبٌ مع اللَّهِ ، وأدَبٌ مع رَسُولِهِ الكَريمِ ، وأدَبٌ مع خَلقِهِ سُبحانَه .

فالمُسلِمُ أدَبُه : أنَّه حَسَنٌ سَمْتُهُ ، كَثيرٌ صَمْتُهُ ، عَميقٌ فِكْرُهُ ، رَضِيَّةٌ نَفسُهُ ، لا يَسمَعُ فُحشَ الكَلام ولا يَرْضَهُ ، لا يَقرَبُ الخَنَا ، ولا يُؤذِي ولا يُذِلُّ جارَهُ ، لا يَلزَمُ الطَّمَعَ ، لا يُكثِرُ المَقالَ فيُسئَمُ ، ولا يُكثِرُ السُّؤالَ فيُحْرَمُ ، لا يَستَخِفُّ بإخْوانِهِ فيُخْذَلُ ، لا يُكثِرُ الابتِهَاجَ بالمَواهِبِ ، لا يَعصِي رَبَّه في هَواهُ ، ولا يُهِينُ نَفسَهُ في إكْرَامِ دُنْياهُ يَعفُو تَفَضُّلاً ، ويَكظِمُ غَيظَهُ حِلماً ، يَصبِرُ على البَلاءِ والأذَى ، يُصاحِبُ الأَخيَارَ ، ويَعتَزِلُ الأشْرَارَ ، ويُكرِمُ الضَّيفَ ، إنْ تَكلَّمَ تَلَطَّفَ ، وإنْ زَارَ خَفَّفَ ، وإنْ عَرَضَ مَطْمَعٌ تَعَفَّفَ ، وإنْ اشْتَبَهَ أَمْرٌ تَوَقَّفَ ، وإنْ أَذْنَبَ تَأَسَّفَ ، غَزيرُ الحِجَا عَظيمُ الرَّجَا ، يُقِيمُ الدُّجَى ، كَثيرُ الخَوفِ

والوَجَى ، يَهجُرُ الغَيبَةَ والهَجَا ، للقادِمِ بَشُوشٌ ، وللضَّيفِ هَشُوشٌ ، طَلقُ المُحَيَّا ، يُشْبِهُ الثُّرَيَّا ، مَلابِسُهُ نَقيَّةٌ ، رَوَائِحُهَا زَكيَّةٌ ، هِمَّتُهُ قَويَّةٌ ، نَفسُهُ رَضِيَّةٌ ، عن الذُّلِّ أَبيَّةٌ ، لا تَقبَلُ الدَّنيَّة ، مُقْبِلٌ على الطَّاعَاتِ ، يُحْجِمُ عن المَعْصِيَاتِ ، يُكثِرُ تِلاوَةَ القُرآنِ وذِكْرِ اللَّهِ تَعالَى ، لا يِصخَبُ ولا يَصِيحُ ، ولا يُكثِرُ المِزاحَ ، مُتَوَاضِعٌ خافِضٌ للجَنَاحِ ، مُدمِنٌ للذِّكْرِ ، زَاهِدٌ في حُطَامِ الدُّنيا ، مُفْشِيٌ للسَّلامِ ، بَسطُ الوَجْهِ واليَدَينِ ، بَارٌ بالوَالِدَينِ ، وَاصِلٌ للرَّحِم ، يَعِظُ المُسِيء بحُسْنِ فِعَالِهِ ، ويَدُلُّ علَى الجَميلِ بجَميلِ خِلَالِه ، كَلامُهُ غَير فُضُولٍ ، وهو غَيرُ عَجُولٍ ولا غَضُوبٍ ، حَسَنُ النِّيَّة ، أَحسَنُ النَّاسِ لِقاءً ، يُحِبُّ للنَّاسِ مَا يُحِبُّ لنَفسِه ، ويَثِقُ

بمَوَاعِـيدِ اللَّـهِ ، لا يَحسِـدُ ولا يَبغَضُ ولا يَبغِي ، ولا يَغُلُّ ولا يَحقِدُ ، ولا يَكذِبُ ، جَوَادٌ كَرِيمٌ ، نَقِيٌّ تَقِيٌّ سَلِيمُ الصَّدرِ ، يَرضَى بما قُسِم ، ويَقنَعُ بما حَصَـل ، يَشكُرُ اللَّـهَ على نِعَمِـه بقَولِه وفِعلِه ، ويَحمَدُهُ على آلائِه بجَهْدِه وقُوَّتِه ، يَعبُدُ اللَّـهَ على يَقينٍ ورِضَا ، لا يَجْحَدُهُ ولا يَكفُرُه ، يَدُورُ مع شَرعِهِ ، ويَعرِفُ قَدرَهُ ، ويَحذَرُ مَكرَهُ ، ويَخَافُ عِقَابَه وغَضَبَه ، ويُسَلِّمُ لقَضَائِه وقَدَرِه ، يَعتَرِفُ لرَبِّه بذَنبِه ويَندَمُ على مَعصِيَتِه ، ويَتُوبُ من قَرِيبٍ ، يَتَحبَّبُ إلى مَوْلاهُ بالطَّاعَاتِ والقُرُباتِ ، لا يَغْلُو في دِينِه ولا يُجَافِي ، فالأدَبُ حِفْظُ الحَدِّ بَينَ الغُلُوِّ والجَفَاءِ بمَعرِفَةِ ضَرَرِ العُدوانِ .

وإلَيكُم سِلْسِلَةٌ سَمَطتُّها بغِزَارِ الأدَبِ ، وحَلَّيتُها

بعَقدٍ فَريدٍ من الآياتِ والأحاديثِ والآثارِ وخودِ التَّاريخِ ، وعَجائبِ الأحْوَالِ والأقْوَالِ .

أسألُ اللَّـهَ تَعالَى أنْ يَكُونَ العَمَلُ لوَجْهِه خالِصاً ، وعلى رِضَاهُ حائزاً ، وبنَوالِه وجائزَتِه فائزاً .

وصَلَّى اللَّـهُ وسلَّمَ على نَبيِّنا وسيِّدِنا مُحمَّدٍ وآلِه وصَحبِه .

المُروءَة

خُلقٌ ضَيَّعه كثيرٌ من النَّاس

إنّما هي المُروءَة ، وهي استعمال الأخلاق الكَريمة مع الخَلقِ ، وهي سَجيةٌ جُبلت عليها النُّفوسُ الزَّكية ، وشِيمٌ طُبعَت عليها الهِمَمُ العَليَّة ، وضَعُفت عنها الطِّباعُ الدَّنية ، فلَم تطِق حَملَ أشْراطِها السَّنية .

ومن شَواهد الفَضل ودَلائل الكَرَم : المُروءَة ، التي هي حِليةُ النُّفوس ، وزِينَةُ الهِمَم ، فالمُروءَة مُراعاةُ الأحوال إلى أن تكون على أفضلها ، وتَصفية الأخْلاق ، حتَّى تَكونَ على أكملها ، وحتَّى لا يظهر منها قَبيحٌ عن قَصدٍ ، ولا يَتوجَّه إليها ذمٌّ باستحقاق .

والمُروءَة هي الصَّفحُ عن عَثَرات الإخوان ، وتَركُ ما تَهوَى

النفسُ لما تَخشَى ، وإتِّباعُ السنَّة ، والوَفاءُ والحِفظُ ، وعَدمُ مُنافَرَة الفُقَراء ، أو مُعارضةُ الأغنياء ، وهي كَفُّ الأذَى ، وبَذلُ النَّدَى ، والإنصافُ من النفس وتَركُ الانتصافِ لها ، المُروءَة هي صَنائعُ المعروف وحُسنُ الخُلُق ، وهي أن لا ترى لنفسك فَضلاً على غَيرِك . وهي فَضيلةٌ تأتيها ، ولا تَرَى نفسَكَ فيها ، وهي أن لا تَحتجبَ ممَّن قَصدَك . ولا تَعمل شيئًا في السِّرِّ تَستَحي منه في العَلانية .

المُروءَةُ هي الصَّبرُ على الرِّجال وعلى المَكارِه ، ورَعْيُ مَساعي البِرِّ ، ودَفعُ دَوَاعي الضُّرِّ ، والطَّهارةُ من جَميعِ الأدْناسِ ، والتخلُّصُ من عَوَارض الالتِبَاسِ ، حتَّى لا يتعلق بحاملها لَومٌ ، ولا يَلحَقُ به ذَمٌّ ، وما من شَيءٍ يَحمِلُ على صَلاحِ الدِّينِ والدُّنيا ، ويَبعَثُ على شَرفِ

المَمَاتِ والمَحْيا ؛ إلاَّ وهو داخلٌ تحتَ المُروءَة . وبالجُملة فالمُروءَة ، هي استعمالُ كُلِّ خُلُقٍ حَسَن ، واجْتناب كُلِّ خُلُقٍ قَبيحٍ ، واجتناب الدَّنايا والرَّذائل ؛ من الأقْوَال ، والأخْلاقِ ، والأعْمالِ .

والمُروءَةُ ، مُروءَتان ؛ مُروءةٌ مع النَّفسِ ، ومُروءَةٌ مع الخَلقِ ؛ فأمَّا مُرُوءَةُ النَّفسِ ، فهي العِفَّةُ والنَّزاهَةُ عن المَحارِمِ والمآثِم والخيانة والمُجاهَرة بالظُّلمِ ، والصِّيانَة للنَّفسِ بالْتِماس الكِفايَة ، وكَفِّها عن الشَّرَهِ والطَّمَعِ .

ومُروءَةٌ مع الخَلقِ ، فهي : المُعاوَنَة والمُؤزَرَة ، وهذه تَكُونُ بالإسعافِ بالجَاه ببَذلِه للمُحتاج إليه ، والإسعافِ في النَّوائب والمُساعَدَة في الخُطُوبِ ، والإصَابَةِ من المال ببَذْلِه في مَوَاقِعه المَحمُودَة عَقلاً وعُرفاً وشَرعاً . والإحسانِ إلى

الخَلقِ بتَعجيلِ الإحسانِ وتَيسيرِه وتَوفيرِه ، وعَدمِ رُؤيَتِه حَالَ وقُوعِه ، ونِسيانِه بعدَ وقُوعِه ، فهذه مُروءَةُ البَذلِ .

وأمَّا المياسَرة ، فهي تَركُ الخِصَامِ ، والمُعاتَبة ، والمُطالَبة والمُمَاراة والمُجادَلَة ، والإغْضاءُ عن عَيبِ ما يُؤخَذ من الحَقِّ ، وتَركُ الاستقصاء في طلَبِه ، والتَّغافُلُ عن عَثَرات النَّاسِ ، وإشعارُهم أنَّك لا تَعلَمُ منهم عَثْرة ، والتَّوقِيرُ للكَبيرِ ، وحِفظُ حُرمَة النَّظير ، ورِعايَةُ أدَب الصَّغيرِ . وبالعَفْوِ عن الزلاَّت والمُسامَحَة في الحُقوقِ ، والإفْضَالُ بصَنائع المَعرُوف ، والإسْدَاء في الخَيرِ ، وهذا بحَلاوَة اللِّسانِ وطِيبِه ولِينِه ، واجْتِناء الثِّمار منه بسُهولةٍ ويُسرٍ . وسِعَة الخُلُق وبَسطِه للحَبيبِ والبَغيضِ .

السِّتْرُ دُونَ الفَاحِشَاتِ ولا يَلْقَاكَ دُونَ الخَيرِ من سِتر

قالَ أبو عَليّ الدقَّاق : جاءَت امْرأةٌ فسَألت حاتمَ الأصَمَّ عن مَسألةٍ ، فاتَّفقَ أنَّه خَرجَ منها صَوتٌ في تلك الحَالة ، فخَجلَت ؛ فقَالَ حاتمُ : ارْفَعي صَوْتَك ، فأَوْهَمَها أنَّه أَصَمٌّ ، فُسُرَّت بذلك المَرأةُ ، وقالت : إنَّه لمْ يَسمَعْ الصَّوتَ . فلُقِّبَ بحاتمِ الأصَمِّ من ذلك اليوم ، وهذا التَّغافُلُ هو نصفُ المُروءَة .

وإليك مُروءَة سيّدنا يُوسُف الصدِّيق عليه السلام : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدَاً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقَّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ البَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنِ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ (١) .

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٠٠ .

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ : «لم يقُلْ : أخرَجَني من الجُبّ ؛ حِفْظاً للأدَبِ مع إخْوَتِه ، وتَفَتِّياً عليهم ومُروءَةً بَلَغَت الكَمَالَ ، أنْ لا يُخْجِلَهُم بمَا جَرَى في الجُبِّ ، وقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ﴾ ، ولمْ يَقُلْ : رَفعَ عَنكم جَهْدَ الجُوعِ والحَاجَة ، أدَباً ومُروءَةً مَعَهم ، وأضَافَ ما جَرَى إلى السَّبَبِ ، ولمْ يُضِفْهُ إلى المُباشِر الذي هو أقرَبُ إليه منه ، فقَالَ : ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنِ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ، فأعْطَى الفُتُوَّة والكَرَم والمُروءَة والأدَب حقَّه ، ولهَذا لمْ يكُنْ كمَالُ هَذا الخُلُق إلاَّ للرُّسُل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

وليَكُن أخي المُبارَك مَثَلُك كمَثَل أبي ضَمْضَمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أخْرَج ابنُ السُّنِّي في عَمَل اليَوْم واللَّيلَة عن أنَسِ بنِ مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْضَمْ؟» قَالُوا : ومَنْ أبو ضَمْضَمْ يا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ : «كَانَ إذَا أَصْبَحَ قَالَ : اللَّهُمَّ إنِّي قَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي وعِرْضِي لَكَ ، فَلا يَشْتِمُ مَنْ شَتَمَه ، ولا يَظْلِمُ مَنْ ظَلَمَهُ ، وَلا يَضْرِبُ مَنْ ضَرَبَهُ» (١) .

هذه هي مَنزلة المُروءَة وحَقيقَتُها : الإحْسَانُ إلَى النَّاسِ ، وكَفُّ الأذَى عَنهم واحْتِمالُ أذَاهم ، بَلْ والعَفوُ عَنهم والتَّصدُّقُ عَليهم بالعِرْضِ والنَّفسِ والمَالِ بمَا نَالوا ، وهذا غَايَةُ المُروءَة وحُسنُ الخُلُق . فلا دين بلا مُروءَة كمَا قيلَ . وعَفوُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أهْلِ مكَّة بعد

(١) سنن أبي داود ، وهو صحيح الإسناد .

فَتحِها ، أعظَمُ مُروءَة وأكملُ فُتوَّة ، وأجْمَل خُلُق ، مَنْ يُدانيه أو يُقاربُه عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الفِعْل ، «اذْهَبُوا فَأنتُم الطُّلَقاءُ» ، أطْلَقَهم مع قُدرَتِه عَليهم ؛ لأنَّه صَاحبُ المُروءَة العُليا والنُّبل في الشِّيَم، التي عَجزتْ النِّساءُ أنْ يَلدْنَ مثلَ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

إنَّ صاحب المُروءَة ، لا يَقَع ، وإذا وَقَع ، وجَد مُتَّكئاً ، وقد وَرَد عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قَالَ : «تَجَاوَزُوا لِذَوِي المُرُوءَاتِ عَنْ عَثَرَاتِهِم ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَهُم لَيَعْثُرُ وَإِنَّ يَدَهُ لَفِي يَدِ اللَّهِ» (١) .

كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عَظيم مُروءَتِه أنَّه يَبدأُ مَنْ لَقِيَه بالسَّلامِ ، وإذَا أخَذَ بيَدِه ، سايَرَه حتَّى يَكُونَ ذَلك هو المُنصَرِف ، ولا يَنزِعُ يَدَه من أحدٍ صافَحَه ، حتَّى يَكُونَ

(١) الجامع الصغير للسيوطي ، مرسل صحيح .

هو المُبتَدئُ ، «وكان ﷺ لا يَجلِسُ إلَيه أحَدٌ وهو يُصَلِّي ، إلاَّ خَفَّفَ صَلاتَه ، وأقبَلَ عَليه فقَالَ : أَلَكَ حَاجَة ؟ ، فإذَا فَرَغَ ، عَادَ إلى صَلاتِه ﷺ» (١) .

وكان ﷺ من مُروءَته العَجيبَة ، أنَّه يُؤثِرُ الدَّاخِلَ عَليه بالوِسَادَةِ التَّي تَكُونُ تَحتَهُ ، فإنْ أبَى الضَّيفُ أنْ يَقبَلَهَا ، عَزَمَ عَلَيه حتَّى يَقبَلَ .

وكان ﷺ لا يَجْفُو علَى أحَدٍ ، ولَوْ فَعَلَ مَعَهُ مَا يُوجِبُ الجَفَاءَ . وكان ﷺ يَقبَلُ مَعْذِرَةَ المُعتَذِر إلَيه ، ولَوْ فَعَلَ مَا فَعَل . وكان ﷺ إذا سُئلَ أنْ يَدعُوَ علَى أحَدٍ ، عَدَلَ عن الدُّعَاءِ عَلَيه ، ودَعَا لَهُ .

ومِن فُتوَّتِه وكَريم مُروءَتِه ﷺ ، أنَّه مَا ضَرَبَ بيَدِه

(١) دلائل النبوة للبيهقي ، وله شواهد تشهد له بالصحة .

امْرأةً ولا خَادِماً قَطُّ ولا غَيرَهُما ؛ إلاَّ أنْ يكون جهادًا في سَبيلِ اللَّه . قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : كَانَ الخَادِمُ إذَا أَغْضَبَ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ : «لَوْلَا خَشْيَةُ القَصَاصِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَأَوْجَعْتُكَ بِهَذَا السِّوَاكِ» (١) .

ولَمَّا كُسِرَت رُباعِيَّتُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشُجَّ وَجهُهُ الشَّريفُ يَومَ أُحُدٍ ، شَقَّ ذَلكَ علَى أصْحَابِه شَديدًا ، وقَالُوا : لَوْ دَعَوْتَ عَلَيهم ، فقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً وَلَكِنْ بُعِثْتُ دَاعِيَاً ورَحْمَةً ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي ، فَإنَّهُم لَا يَعْلَمُونَ» (١) .

قَالَ ابنُ القَيِّم : ومن المُروءَة التِّي لا تُلحَق : ما يُذكَر أنَّ رَجُلاً نَامَ من الحُجَّاجِ في المَدينَةِ ، ففَقَد همْياناً له (ما

(١) مجمع الزوائد للهيثمي ، وإسناده جيد .

(٢) مسلم ، الهيثمي في مجمع الزوائد ، الجامع الصغير للسيوطي .

يُحفَظُ فيه النُّقودُ) فيه ألفُ دينار ، فقَامَ فَزِعاً ، فوَجدَ جَعْفَرَ بنَ مُحمَّد ، مِنْ آلِ بَيتِ النَّبيِّ ﷺ بجِوَارِه ، فعَلِقَ به وقَالَ : أَخَذتَ همْياني ! فقَالَ : أيُّ شَيءٍ كان فيه ؟ قَالَ : ألفُ دينار ، فأدْخَلَه دَارَه ووَزَنَ له ألفَ دينارٍ ، ثُمَّ إنَّ الرَّجُلَ وجَدَ همْيانَه ، فجاءَ إلى جَعْفَرٍ مُعتَذِراً بالمَالِ ، فأبَى أنْ يَقبَلَه منه ، وقَالَ : شَيءٌ أَخْرَجتُه من يَدِي لا أسترِدَّه أبداً . فقَالَ الرَّجُلُ للنَّاسِ : مَنْ هَذا؟ فقَالُوا : هَذا جَعْفَرُ بنُ مُحمَّد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . للَّه دَرُّهُم من أهْلِ بَيتٍ ، لسَانُ حالِهِم يَقُولُ :

تَرَكْنَا البِحَارَ الزَّاخِرَاتِ وَرَاءَنَا ... يَلْقَاكَ دُونَ الخَيرِ من سِترِ

قَالَ رَبيعَةُ الرَّأي : المُروءَة سِتُّ خِصَالٍ : ثَلاثةٌ في الحَضَرِ ، وثَلاثةٌ في السَّفَرِ ، فأمَّا التي في السَّفَرِ : فبَذْلُ الزَّادِ ،

وحُسْنُ الخُلُقِ ، ومُدَاعَبَةُ الرَّفِيقِ ، وأمَّا التي في الحَضَرِ : فتِلاوَةُ القُرآنِ ، ولُزُومُ المَسَاجِدِ ، وعَفَافُ الفَرْجِ .

قِيلَ لأبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : ما المُروءَة؟ قَالَ : «تَقْوَى اللَّـهِ وتَفَقُّدُ الضَّيْعَةِ» .

وقَالَ الأحْنَفُ بنُ قَيْسٍ المُروءَة : «العِفَّةُ والحِرْفَةُ ، وعَدَمُ سُؤالِ النَّاسِ والإلحَاحِ عَليهم .

ومن غَرائبِ المُروءاتِ ، حُكيَ أنَّ رَجُلاً تَزَوَّجَ بامْرأةٍ ، فلمَّا دَخَلَت عَليه ، رَأى بهَا الجُدَريَّ في وَجْهِهَا وجَسَدِها ، فقَالَ لهَا بعدَ فَترَةٍ من الدُّخُولِ بهَا : اشْتَكيتُ عَيني ، ثُمَّ قَالَ لهَا : لقَدْ عَميتُ ، فلا أُبصِرُ شَيئًا ، فبَعدَ عِشْرينَ سَنةً ، مَاتَت المَرأةُ ، ولَمْ تَعْلَم أنَّه بَصِيرٌ ، وكَانَت تَظُنُّ طِيلَةَ تِلكَ السَّنَواتِ أنَّ مَا ادَّعَاهُ من ذَهَابِ البَصَرِ حَقيقَةً ، ولَمْ تَدرِ أنَّ مَا به من

ضُرٍّ ولا عِلَّةٍ ، فقِيلَ له في ذَلكَ : لِمَ فَعَلتَ هَذا ؟ فقَالَ : كَرِهتُ أنْ يُحْزِنَها رُؤيَتي لِـمَا بها .

تَلذُّ لَه المُرُوءَةُ وهِيَ تُؤْذِي ومَنْ يَعْشَقْ يَلذُّ لَه الغَرَامُ

قَالَ الشَّعبيُّ : تَعامَلَ النَّاسُ بالدِّينِ زَماناً طَويلاً ، حتَّى ذَهبَ الدِّينُ ، ثُمَّ تَعاشَروا بالمُروءَةِ حتَّى ذَهَبَت المُروءَةُ ، ثُمَّ تَعاشَروا بالحَياءِ حتَّى ذَهَبَ الحَياءُ ، ثُمَّ تَعاشَروا بالرَّغْبَة والرَّهْبَة ، وأظُنُّه سَيأتي بعدَ ذَلكَ ما هو شَرٌّ منه .

إذَا المَرءُ أعْيَتهُ المُروءَةُ ناشِئاً فمَطْلَبُها كَهْلاً عَليهِ شَديدُ
كَفَى حُزْناً أنَّ المُروءَةَ عُطِّلَتْ وأنَّ ذَوي الألْبَابِ في النَّاسِ ضُيَّعُ
وأنَّ مُلُوكاً لَيسَ يَحْظَى لَدَيْهِمُ مِنَ النَّاسِ إلاَّ مَنْ يُغَنِّي ويُصْفَعُ

ومِمَّا يُعلَمُ أنَّه لا مُروءَةَ لكَذُوبٍ ، ولا سُؤْدُدَ لبَخِيلٍ ، ولا وَرَعَ لسَيِّءِ الخُلُق .

قَالَ العتبيُّ عن أبيه : «لا تَتِمُّ مُروءَةُ الرَّجُلِ إلاَّ بخَمسٍ : أنْ يَكُونَ عَالِماً ، صَادِقاً ، عَاقِلاً ، ذَا بيَانٍ ، مُسْتَغنياً عن النَّاسِ» .

وَمَا المَرءُ إلاَّ حَيثُ يَجعَلُ نَفسَهُ ... فَفي صَالِحِ الأَخْلاقِ نَفسَكَ فاجْعَلِ

قَالَ الشَّافِعيُّ : «للمُروءَةِ أربَعَةُ أركَانٍ : حُسْنُ الخُلُقِ ، والسَّخَاءُ ، والتَّواضُعُ ، والشُّكرُ» .

وسُئلَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ عن الرَّجُلِ التَّامِّ الكَامِلِ المُروءَة ، فقَالَ : «الكَامِلُ مَنْ بَرَّ وَالدَيهِ ، ووَصَلَ رَحِمَه ، وأكْرَمَ إخْوانَه ، وحَسَّنَ خُلُقَه ، وأحْرَزَ دِينَه ، وأصْلَحَ مَالَه ، وأنفَقَ من فَضْلِه ، وحَسَّنَ لِسَانَه ، ولَزِمَ بَيتَه» .

وإذَا الفَتَى جَمَعَ المُروءَةَ والتُّقَى ... وحَوَى مَعَ الأَدَبِ الحَيَاءَ فَقَد كَمُل

وقالوا : مَنْ أخذَ مِن الدِّيكِ ثَلاثةَ أشْياءَ ، ومِن الغُرابِ

ثَلاثةَ أشْياءَ ، تمَّ بها أدَبُه ومُروءتُه ، مَنْ أخذَ مِن الدِّيكِ سَخاءَه وشَجاعَتَه وغِيرَتَه ، ومِن الغُرابِ بُكُورَه لطَلَبِ الرِّزقِ وشِدَّةَ حَذَرِه وسِتْرَ سفادِه (جِماعَه) .

وَلَيسَ فَتَى الفِتْيانِ مَنْ رَاحَ واغْتَدَى ... لِشُربِ صَبوحٍ أو لِشُربِ غَبُوقِ
وَلَكِنْ فَتَى الفِتْيانِ مَنْ رَاحَ واغْتَدَى ... لِضُرِّ عَدُوٍّ أو لِنَفْعِ صَدِيقِ

قَالَ مَيْمُونُ بنُ مَيْمُونَ : أوَّلُ المُروءَة ، طَلَاقَةُ الوَجْهِ ، والثَّاني : التَّوَدُّدُ ، والثَّالثُ : قَضَاءُ الحَوَائجِ .

ومِمَّا يَزيدُ في المُروءَة ، تَعلُّمُ العَربيَّة ، التِّي هَجَرَها النَّاسُ ومَلَّها الكِبَارُ والصِّغَارُ ، واسْتَنكَفُوا عَنها ، كَأنَّها دَاءٌ مُجَرَّبٌ ، أو عُضَالٌ مُعْدٍ ، فاسْتَعجَمَت الألْسُنُ ، ولَكِنَتْ الأحْرُفُ ، وظَهَرَ اللَّحْنُ جَلِيًّا ؛ كأنَّكَ بَينَ أظْهُرِ عُجْمٍ لا عَرَب واللَّهِ ! ومِمَّا يَزيدُها كَذلكَ ، تَعلُّمُ النَّسَبِ ؛ فبها تُوصَلُ الرَّحِمُ المَجهُولَة ، وبها تُدفَعُ الدَّعَاوَى المَكذُوبَة .

المُروءَةُ ، خُلُقُ الأنبياءِ الكِرَام والصِّدِّيقينَ الرُّحمَاءِ ، والأوْلياءِ البَررَة ، المُروءَةُ ثِقلٌ وأيُّ ثِقلٍ ، وحِمْلٌ أيُّ حِملٍ ؛ إنَّها لَتنوءُ بالعُصْبةِ أُولي القُوَّةِ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (١) .

وقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ حِكَايةً عَن قَومِ قَارُونَ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ (٢) ، فيها عَينُ المُروءَة وحَقيقَتُها . فالمُروءَةُ شَرَفٌ لا يُتَوَصَّلُ له إلاَّ بالمُعاناة ، ولا يُوقَفُ عَلَيه إلاَّ بالتَّفقُّدِ والمُراعَاة . قَالَ ابنُ عائشَةَ القُرَشيُّ : لَوْلا أنَّ المُروءَة مُتصَعَّبٌ مَحَلُّها ؛ لَمَا تَركَ اللِّئامُ للكِرامِ مَنْها بَيتَةً لَيلَةٍ .

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٥ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٨٠ .

لَوْلا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهمُ ... الجُودُ يُفْقِرُ والإقْدامُ قَتَّالُ
والحَمدُ شَهْدٌ لا يُرَى مُشْتارَهُ ... يَجْنيهِ إلاَّ مِنْ نَقيعِ الحَنْظَلِ
غُلٌّ لِحَامِلِه ويَحْسَبُه الذي ... لَمْ يُوهِ عاتِقَهُ خَفيفَ المَحْمَلِ

تَقُولُ السَّيدَةُ عائشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : «مَا رَأيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُنتَصِراً مِنْ مَظْلَمَةٍ ظُلِمَهَا قَطُّ مَا لَمْ يُنْتَهَكْ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ شَيءٌ ، فَإذَا انتُهِكَ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ شَيءٌ ، كَانَ مِنْ أشَدِّهِم في ذَلِكَ غَضَباً ، وَمَا خُيِّرَ بَينَ أمْرَينِ إلاَّ اخْتَارَ أيْسَرَهُما ؛ مَا لَمْ يَكُنْ إثْماً ، فَإنْ كَانَ إثْماً ، كَانَ أبعَدَ النَّاسِ مِنْه . وكَانَ ﷺ لا يَغضَبُ لِنَفسِهِ ، ولا يَنتَقِمُ لَهَا ، وإنَّما يَغضَبُ للَّهِ تَعَالَى ، ولَمْ يَكُنْ ﷺ بِفَظٍّ ولا غَلِيظٍ ، ولا صَخَّابٍ ولا فَحَّاشٍ ، ولا عَيَّابٍ ، ولا مُشَاحٍّ ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لا يَشْتَهِي ، دَائِمَ البِشْرِ ، سَهْلَ

الخُلُقِ ، لَيِّنَ الجَانِبِ ، لا يَجْزِي بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ ، ولَكِنْ يَعْفُو ويَصْفَحُ . قَدْ تَرَكَ نَفسَهُ مِنْ ثَلاثٍ : المِرَاءُ والجِدَالُ ، والإِكْثَارُ ، ومَا لا يَعنِيهِ ، وتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلاثٍ : كَانَ لا يَذُمُّ أحَداً ، ولا يَعِيبُهُ ، ولا يَطلُبُ عَوْرَتَهُ ، ولا يَتَكلَّمُ إلاَّ فيمَا رَجَا ثَوابَهُ .

قَالَ القُسْطلاَّنيُّ في المَواهِبِ : اللُّبُّ والمُروءَةُ والعَقلُ مِئَةُ جُزءٍ ، تِسعَةٌ وتِسْعونَ منها في النَّبيِّ ﷺ ، وجُزءٌ في سَائرِ المُؤمنينَ . قَالَ : ومَنْ تَأمَّلَ حُسْنَ تَدبيرِهِ للعَرَبِ الذين هُم كالوَحْشِ الشَّارِدِ ، معَ الطَّبعِ المُتَنافِرِ المُتَباعِدِ ، وكَيفَ سَاسَهُم واحْتَمَلَ جَفاهُم ، وصَبَرَ عَلَى أذَاهُم إلى أنْ انْقَادُوا إلَيه ، واجْتَمَعُوا عَلَيه ، وقَاتَلُوا دُونَه أهْلِيهِم وآباءَهُم وأبناءَهُم ، واخْتَارُوهُ عَلَى أنفُسِهم ، وهَجَرُوا في رِضَاهُ أوْطَانَهُم وأحِبَّاءَهُم ، من غَيرِ مُمَارَسَةٍ سَبقَت

لَهُ ، ولا مُطَالَعَةِ كُتُبٍ يَتعَلَّمُ منها سِيَرَ المَاضِينَ ، تَحقَّقَ لَهُ أنَّه أعْقَلُ العَالَمِينَ ، وأكْمَلَ أصْحَابِ المُروءَاتِ .

قَالَ وَهْبُ بنُ مُنبِّه : قَرأتُ في أَحدٍ وسَبعينَ كِتاباً ، فوَجَدتُ في جَميعِها : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَرجَحُ النَّاسِ عَقْلاً ، وأَفضَلُهم رَأياً . ومن أَرفَع دَرجَاتِ المُروءَة : أنْ تُقرِّبَ مَنْ يُقصِيكَ ، وتُكرِمَ مَنْ يُؤذِيكَ ، وتَعتَذِرَ إلى مَنْ يَجْني عَلَيكَ ؛ سَماحَةً لا كَظْماً ، ومَودَّةً لا مُصابَرةً .

قَدمَ جَماعَةٌ من أصْحابِ المُروءاتِ لزيارَةِ مِثْلِهم ، فقَالَ الرَّجُلُ صَاحِبُ الدَّارِ لغُلامِه : يا غُلامُ قَدِّمْ السُّفرَةَ . فلَمْ يُقَدِّمْ ، فقَالَها : ثانياً وثالثاً ، فلَمْ يُقَدِّمْ الغُلامُ السُّفرَةَ ، فنَظَرَ بَعضُهم إلَى بَعضٍ ، وقَالُوا : لَيسَ من المُروءَةِ أنْ يَستَخدِمَ الرَّجُلُ مَنْ يَتَعاصَى عَلَيه في تَقدِيمِ السُّفرَةِ كُلَّ

هذا . فقَالَ الرَّجُلُ لغُلامِه : لِمَ أبْطَأتَ بالسُّفرَةِ ؟ فقَالَ الغُلامُ : كَانَ عَلَيها نَملٌ ، ولَيسَ من المُروءَة والأدَبِ تَقديمُ السُّفرَةِ إلى الفِتْيانِ معَ النَّملِ ، ولَيسَ من الفُتُوَّةِ والمُروءَةِ إلْقَاءُ النَّملِ وطَردُهم عن الزَّادِ ، فلَبِثتُ حتَّى دَبَّ النَّملُ وانْصَرفَ . فقَالُوا : يا غُلامُ ، مِثلُكَ يَخدِمُ الفِتْيانِ .

يَنْسَى صَنَائِعَهُ واللَّهُ يُظْهِرُها إنَّ الجَميلَ إذَا أَخْفَيتَهُ ظَهَرا

واسْتَضافَ رَجُلٌ جَماعَةً من ذَوِي المُروءَاتِ ، فلَمَّا فَرَغُوا من الطَّعامِ ، خَرَجَت جَارِيةٌ تَصُبُّ المَاءَ عَلَى أَيدِيهِم ، فانْقَبَضَ وَاحِدٌ مِنهُم ، وقَالَ : لَيسَ من المُروءَة أَنْ تَصُبَّ النِّسْوَانُ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ . فقَالَ آخَرٌ مِنهُم ، سَهْمُهُ عَلَا ، وكَعْبُهُ جَلَا في المُروءَةِ : أنا منذُ سِنينَ أَدخُلُ إلَى هذه الدَّارِ ، ولَمْ أعْلَم أنَّ امْرأةً تَصُبُّ المَاءَ عَلَى أَيدِينا

أو رَجُلاً . وهذا الرَّبيعُ ابنُ خُثَيم ، تلميذُ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، والذي تَردَّدَ عَلَى بَيتِه السِّنينَ الطَّويلَة ، ومن كَثرَةِ غَضِّهِ لِطَرْفِه ، كانت الجَارِيَةُ تَظُنُّه أَعمَى، فإذا طَرَقَ البَابَ ، دَخلَت علَى ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وقَالَت له : صَاحِبُكَ الأَعْمَى قد أَتَى .

إِنَّ المُروءَةَ لَيسَ يُدرِكُهَا امْرُؤٌ ... وَرِثَ المَكَارِمَ عَنْ أَبٍ فَأَضَاعَهَا
أَمَرَتْهُ نَفْسٌ بالدَّنَاءَةِ والخَنَا ... ونَهَتهُ عن سُبُلِ العُلَا فأَطَاعَهَا
فَإِذَا أَصَابَ مِنْ المَكَارِمِ خِلَّةً ... يَبْنِي الكَرِيمُ بِهَا المَكَارِمَ بَاعَهَا

قِيلَ لعَبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَانَ : أَكَانَ مُصْعَبُ بنُ الزُّبَيْرِ يَشرَبُ الخَمْرَ ؟ فقَالَ : لَوْ عَلِمَ مُصْعَبُ أَنَّ المَاءَ يُفْسِدُ مُروءَتَه مَا شَرِبَهُ . اللَّهُ أَكبَرُ ! ومِثلُهُ قَالَهُ الشَّافِعيُّ : لَوْ عَلِمتُ أَنَّ المَاءَ البَارِدَ يَثلَمُ مُروءَتي لَمَا شَربتُهُ ، ولَوْ كُنتُ اليَومَ مِمَّن يَقُولُ الشِّعرَ ، لرَثَيتُ المُروءَة .

عُزِّيَ أبو بَكْر الطَّرسُوسيُّ ، فقِيلَ : ما شَأْنُه ، مَنْ مَاتَ لَهُ ؟ قَالُوا : فَاتَتهُ صَلاةُ الجَماعَةِ ، رَحِمَكَ اللَّهُ من إمَامٍ ، تُعزَّى في صَلاةٍ فاتَتْكَ في الجَماعَةِ ، فليَبكِ الباكُونَ ، وليَنْحُ النَّائحُونَ علَى صَلَواتٍ بُطِلَّتْ ، ومَسَاجِدُ عُطِّلَت .

وأَزيدُكَ رَعاكَ اللَّهُ تَعالَى من أخْبارِ أولَئكَ القَومِ الشُّموخِ أصْحَابِ المُروءَاتِ ، واللَّهِ إنَّهَا لَعَجَبٌ عُجَابٌ ، ودَهشَةٌ تَدَعُ الحَليمَ حَيْرانَ ، سُبحانَ الذي سَخرَّهم لكَرَمِ المُروءَاتِ وهَيَّئَهم لتِلكَ السَّابِقَاتِ .

قَالَ ابنُ عُيَيْنَة : كانَ سَعيدُ بنُ العَاصِ إذا قَصَدَه سائلٌ ولَيسَ عنده شَيءٌ قَالَ : «اكْتُب عليَّ سجِّلاً بمَسْألتِك إلى المَيْسَرَة» . رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالَى ، فهو من قَوم إذا أَقبَلَ عليهم السَّائلُ يَفرَحُونَ به ، ويَقُولُونَ : «مَرحباً بمَنْ جَاءَ يَحمِلُ

أَزْوَادَنا إلى الآخِرَة بغَيْر أُجْرَةٍ ، ويُقِلُّ عنَّا ما يَشغَلُنا عن عِبادَةِ رَبِّنا سُبحانَه وتَعالَى» . وهذا الإمَامُ أحمَدُ الرِّفاعِي ، وقد أَثنَى عليه العُلماءُ ، كان رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ مُروءتِه ، يَجمَعُ الحَطَبَ ويَجيءُ به إلى بُيُوتِ الأَرامِل ويَملأُ لهم بالجرَّة . بلْ بَلَغَ بهم الأمرُ أنْ لا تُؤذَى بَهائمُ جيرانِهم ، مُروءَةً وكَرامَةً .

كان حَسَّانُ ابنُ أبي سِنَان بنُ ثابِت ، تَدخُلُ العَنْزُ إلى مَنزِلِه فتَأخُذُ الشَّيءَ ، فإذَا طُرِدَتْ قَالَ لهم : «لا تَطرُدوا عَنْزَ جَاري ، دَعُوهَا تَأخُذُ حَاجَتَها» . ولقَد كَانَ الرَّجُلُ في الجاهِليَّة يَقُولُ : «واللَّهِ لا يُؤذَى كَلبُ جَارِنَا» ، فهذا في الجاهلية ، فكيف في الإسْلامِ .

واسْمَعْ إلى أيِّ مَدَى بَلغَت بهم المُروءَة والفُتُوَّة ، عن الحَسَنِ البَصْريِّ قَالَ : «إنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَخْلُفُ أخَاهُ في أهْلِهِ بَعدَ مَوْتِه أرْبَعينَ سَنةً» .

قَالَ السريُّ السقطيُّ : «ذَهبَ المَعروفُ ، وبَقِيَت التِّجارَةُ ؛ يُعطِي أحَدُهُم لأخِيهِ الشَّيءَ ؛ لأجْلِ أنْ يُعطِيهِ نَظِيرَه» .

كَانَ الحَسَنُ البَصريُّ يَقُولُ : «لقد أَدرَكْنا النَّاسَ وأحَدُهُم يَدخُلُ دَارَ أخيهِ وهو غَائبٌ ، فيَرى السَّلَّةَ مَملُوءَةً فاكِهَةً ، فيَأخُذُها يَأكُلُ منها ، ويُفَرِّقُ منها بغَيرِ إذْنٍ ، فإذا جَاءَ أخُوهُ صَاحِبُ الدَّارِ وأُخبِرَ ، فَرِحَ بذلك . ومنْ فَرطِ مُروءَتِهم ، أنَّهم أَعَدُّوا البَخِيلَ الذي يُقرِضُ أخَاهُ ، بَلْ يَتَعاهَدُه بالعَطيَّة والهَديَّة على الدَّوْمِ» . وقَالُوا : «لَيسَ مِنْ المُروءَةِ أَنْ يَرْبَحَ الرَّجُلُ على صَديقِهِ» .

قَالَ بَعضُ الأَعْرابِ : «مَنْ جَمَّعَ المَالَ ولَمْ يَجُدْ بِهِ وجَمَّعَ المَالَ لِعَامِ جَدْبِهِ هَانَ على النَّاسِ هَوَانَ كَلبِهِ» .

وعن القَعْقَاعِ بنِ عَمرُو قَالَ : «صَعَدَ الأحْنَفُ بنُ قَيْسٍ فَوقَ بَيتِهِ ، فأشْرَفَ على جَارِهِ ، فقَالَ : «سَوْءَةٌ سَوْءَةٌ ! دَخَلتُ على جَارِي بغَيرِ إذْنٍ ، لا صَعَدتُ فَوقَ هَذا البَيتِ أبَداً» .

وهَذا إبراهيمُ بنُ أدْهَم في سَفَرٍ ومعَه ثَلاثَةُ نَفَرٍ ، فدَخَلوا مَسْجدًا في بَعضِ المَفَاوِزِ ، والبَردُ شَديدٌ ، ولَيسَ لِلمَسجِدِ بَابٌ ، فلمَّا نامُوا ، قَامَ إبراهيمُ ، فوَقَفَ على البَابِ إلى الصَّبَاحِ ، فقِيلَ له : «لمَ لَمْ تَنَمْ؟» فقَالَ : «خَشِيتُ أنْ يُصِيبَكُم البَردُ ، فقُمتُ مَقَامَ البَابِ» . نَعَم لَنْ تَكْتَمِلَ مُروءَةُ امْرِئٍ حتَّى يَكُونَ لأَخِيهِ كُلَّهُ ، وحتَّى يَقُولَ لأخِيهِ : يا أنَا .

حَقٌّ على السيِّدِ المَرْجُوِّ نَائِلُهُ ... والمُستَجَارُ بِهِ في العُربِ والعَجَمِ

أَلاَّ يُنِيلَ الأَقَاصِي صَوْبَ رَاحَتِهِ حَتَّى يَخُصَّ بِهِ الأَدْنَى مِنَ الخَدَمِ
إِنَّ الفُرَاتَ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ رَوَّى السَّوَاحِلَ ثُمَّ امْتَدَّ فِي الأُمَمِ

قَالَ مَسْلَمَةُ بنُ عبدِ المَلِكِ : «مَا أَعَانَ علَى مُروءَةِ المَرْءِ كَالمَرأَةِ الصَّالِحَة .

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَنزِلِ المَرءِ حُرَّةٌ مُدَبِّرَةٌ ضَاعَت مُروءَةُ دَارِهِ

حَقًّا !! لا يُصَحِّحُ مَبادئَ الإِنْسَانية والمُروءَةِ كمُجَالَسَةِ أهلِ الدِّيانَة ، فإنَّها تَجلُو عن القَلبِ صَدأَ الذُّنُوبِ ، وكمُجَالَسَةِ ذَوِي المُروءَاتِ ، فإنَّها تَدُلُّ على مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ ، ومُجَالَسَةِ العُلَماءِ تُذْكِي القُلُوبَ . ومَكَارِمُ الأَخْلاقِ لا تُوجَدُ إلاَّ في ذَوِي المُروءَاتِ . لِذَا قَالَ عُمَرُ ابنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «كَرَمُ المُؤمِنِ تَقْوَاهُ ، ودِينُهُ حَسَبُهُ ، ومُرُوءَتُهُ خُلُقُه» .

وقَالَ ابنُ عبدِ البَرِّ : «لا تَكَادُ تَرَى حَسَنَ الخُلُقِ إلاَّ ذَا مُروءَةٍ وصَبْرٍ» .

وقَالَ مُعاوِيَةُ بنُ أَبي سُفْيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «آفَةُ المُرُوءَةِ إخْوَانُ السُّوءِ» .

قَالَ جَميلُ بُنُ مُرَّة : «كَانَ مُوَرِّقُ العَجليُّ يَجيئَنا ، فيَقُولُ : «أَمْسِكُوا لَنَا هَذِه الصُّرَّةَ ، فإنْ احْتَجتُمْ فأَنفِقُوها» . فيَكُونُ آخِرُ عَهدِهِ بها» .

واعْلَموا أيُّها المُبارَكُونَ : أنَّه إذَا كَانت الإنسَانيَّةُ والمُروءَةُ تَقتَضي الإعْراضَ عن كَثيرٍ من اللذَّاتِ ، فإنَّ في المُروءَةِ نَفسِهَا لَذَّةٌ تَفُوقُ كُلَّ نَعيمِ الحَياةِ ، إنَّ المروءَةَ غايَةٌ ساميَةٌ، وراحَةٌ ولَذَّةٌ تُنْسِي المَرءَ وتُعوِّضُهُ عن كُلِّ مَشَقَّةٍ ، ولا يَبقَى معَها للتَّعَبِ بَقيَّةٌ ؛ قَالَ المُتنَبِّي :

تَلذُّ لَه المُرُوءَةُ وهِيَ تُؤْذِي ومَنْ يَعْشَقْ يَلذُّ لَه الغَرَامُ

ولَذَّةُ المُروءَةِ في شُعُورِ النَّفسِ ببُلُوغِها كَمَالَ الرُّجُوليَّة أو القُربِ منها ، ولا يَنهَضُ بها إلاَّ ذُو صَبرٍ كَريمٍ ؛ قَالَ أبو عبدِ اللَّهِ الكَاتِبُ : «الصَّبرُ على حُقُوقِ المُروءَةِ ، أشَدُّ من الصَّبرِ على ألَمِ الحَاجَةِ» .

ولِلَّهِ دَرُّ مَنْ قَالَ : «ذُو المُروءَةِ يُكْرَمُ وإنْ كَانَ مُعدَماً ؛ كالأَسَدِ يُهابُ وإنْ كَانَ رَابِضاً ، ومَنْ لا مُرُوءَةَ لهُ ، يُهَانُ وإنْ كَانَ مُوسِراً ؛ كَالكَلبِ يُهَانُ وإنْ طُوِّقَ وحُلِّيَ بالذَّهَبِ .

وحَقُّ التَّمام أن لا يَنتَهي الكلامُ ، وإلى غَزيرةٍ من الغِزار تتجدد ...

الإبْريزُ المُصَفَّى

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أَلَا للَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُم فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١) ، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ، قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الزمر ، الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الزمر ، الآيات : ١١ ـ ١٥ .

قد انكَشفَ لأربابِ القُلوبِ ببَصِيرَةِ الإيمَانِ وأنْوَارِ القُرآنِ أَنْ لا وُصُولَ إِلَى السَّعادَةِ إلاَّ بالعِلمِ والعِبادَةِ ، فالنَّاسُ كُلُّهم هَلْكَى إلاَّ العَالِـمُونَ ، والعَالِـمُونَ كُلُّهم هَلْكَى إلاَّ العَامِلُونَ ، والعَامِلُونَ كُلُّهم هَلْكَى إلاَّ المُخلِصُونَ ، والمُخلِصُونَ علَى خَطَرٍ عَظيمٍ ، فمَنْ وَجَدَ اللَّـهَ فمَاذَا فَقَد !!؟ ومن فَقَدَ اللَّـهَ فمَاذَا وَجَدَ !!؟

مَتَى صَحَّ مِنْكَ الوُدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ ... وكُلُّ الذي فَوقَ التُّرابِ تُرابُ

فالعَملُ بغَيرِ نيَّةٍ عَناءٌ ، والنيَّةُ بغَيرِ إخْلاصٍ رِياءٌ ، وهو للنِّفاقِ كِفاءٌ ، ومع العِصْيَانِ سَوَاءٌ ، والإخْلاصُ من غَيرِ صِدقٍ وتَحقيقٍ هَبَاءٌ ، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (١) ، ولَيتَ شِعْري كَيفَ يُصَحِّحُ نِيَّتَه مَنْ لا يَعرِفُ حَقيقَةَ النيَّة ؟ ، أو كَيفَ يُخلِصُ مَنْ

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣ .

صَحَّحَ النيَّة إذَا لَمْ يَعرِفْ حَقيقَةَ الإخْلاصِ ؟ ، أو كَيفَ تُطالِبُ المُخْلِصَ نَفسُهُ بالصِّدقِ إذا لَمْ يَتَحقَّقْ مَعنَاهُ ؟ إذَا اطَّلَعَ الخَبيرُ على الضَّميرِ ، فلَمْ يَجِدْ غَيرَ الخَبيرِ، جَعَلَ فيه سِراجَاً مُنيراً .

قَالَ عبدُ اللَّـهِ بنُ عُروَةَ بنُ الزُّبَيرِ : «أَشْكُو إلَى اللَّـهِ عَيْبِي ما لا أَترُكُ ونَعْتِي ما لا آتِي ، إنَّما نَبكِي بالدِّينِ للدُّنيا» .

ويَرحَمُ اللَّـهُ الفُضَيْلَ إذ يَقُولُ : «أَدرَكْنَا النَّاسَ وهم يُراءُونَ بمَا يَعمَلُونَ ، فصَارُوا الآنَ يُراءُونَ بمَا لا يَعمَلُون» .

وصَدَقَ المُصطَفَى ﷺ ، إذ يَقُولُ : «إنَّ اللَّـهَ تَعالَى لا يَنظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وأَمْوَالِكُمْ ، وإنَّما يَنظُرُ إلَى قُلُوبِكُم وأَعْمَالِكُم» (١) .

(١) أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة ■ ، وأصله عند مسلم .

قَالَ الثَّورِيُّ : «كانُوا يَتعَلَّمُونَ النيَّةَ لِلعَملِ كمَا تَتعَلَّمُونَ العَمَلَ» .

كَانَ الفُضَيلُ بنُ عِيَاضٍ إذا قَرأَ : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (١) ، يَبكِي ويُرَدِّدُها ، ويَقُولُ : «إنَّكَ إنْ بَلَوْتَنا فَضَحْتَنا وهَتَكتَ أسْتَارَنا ، وأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» .

قَالَ الحَسَنُ : إنَّما خُلِّدَ أهْلُ الجَنَّةِ في الجَنَّةِ ، وأهْلُ النَّارِ في النَّارِ بالنِّيَّاتِ ، وقَالَ أبو هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «مَكْتُوبٌ في التَّوْراةِ مَا أُرِيدَ به وَجْهِي فقَليلُهُ كَثيرٌ ، ومَا أُرِيدَ به غَيْري فكَثيرُهُ قَليلٌ» . ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (٢) .

كَانَ الفُضَيلُ يَقُولُ : «مَنْ لَمْ يَكُنْ في عَمَلِهِ أَكْيَسَ مِنْ

(١) سورة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الآية : ٣١ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٣ .

سَاحِرٍ ، وَقَعَ فِي الرِّيَاءِ» . كَيفَ لا ؟ والنَّبيُّ ﷺ يَقُولُ : «الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ» (١) . وصَدَقَ نُعَيمُ بنُ حَمَّاد حِينَمَا قَالَ : ضَرَبُ السِّيَاطِ أَهْوَنُ عَلَينا من النِّيَّـةِ الصَّالِحَة .

ولنَعلَمَ أَنَّنا قد أَعرَبْنا فِي الأَقوَالِ ، ولحَنَّا فِي الأَعْمَالِ ، وإخْلاصُنا بكُلِّ صِدقٍ يَحتاجُ إلى إخْلاصٍ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً﴾ (٢) ، نَعَم يا نَفسُ أَخلِصِي تَتَخَلَّصِي !! ، وقُولُوا لِمَنْ لَمْ يَكُن صادقاً لا تَتَعَنَّى ، فالمُخلِصُ مَنْ يَكتُمُ حَسَناتِهِ كَمَا يَكتُمُ سَيِّئاتِهِ ، فطُوبَى لِمَنْ صَحَّتْ له خُطوَةٌ واحِدَةٌ ، لا يُرِيدُ بها إلاَّ اللَّـهَ تَعالَى . فَواللَّـهِ إنَّ الإخْلاصَ

(١) **الإيمان لابن تيمية ، ص : ٦٣ ، والحديث صحيح .**
(٢) **سورة الكهف ، الآية : ١١٠ .**

يُمَيِّزُ اللَّـهُ به العَمَلَ من العُيُوبِ كَتَمْييزِ اللَّبَنِ من الفَرْثِ والدَّمِ .

فالإخْلاصُ مِسْكُ القُلُوبِ ، ومَاءُ حَياتِهَا ، ومَدَارُ فَلاحِها ، الإخْلاصُ : بِضَاعَةُ الآخِرَةِ ، لا يَرتَفعُ فيها إلاَّ مُخلِصٌ صَادِقٌ . ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّـهِ رَبِّ العَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ﴾ (١) .

قَالَ أبو عُثْمانَ المَغْرِبيُّ : الإخْلاصُ نِسْيَانُ رُؤيَةِ الخَلقِ بدَوَامِ النَّظَرِ إلى الخَالِقِ ، فتَكُونُ حَرَكَتُه وسُكُونُه في سِرِّهِ وعَلانِيتِه للَّـهِ تَعالَى ، لا يُمازِجُه شَيءٌ ؛ لا نَفْسٌ ، ولا هَوىً ، ولا دُنيا . صِدقاً : إنَّما يُحفَظُ الرَّجُلُ على قَدرِ نِيَّتِه .

(١) سورة الأنعام ، الآيتان : ١٦٢ ـ ١٦٣ .

عن أبي سَعيد الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّه قَالَ في حَجَّةِ الوَداعِ : «نَضَّرَ اللَّهُ امْرأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ ، ثَلاثٌ لا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُؤْمِنٍ : إِخْلاصُ العَمَلِ لِلَّهِ ، والـمُنَاصَحَةُ لِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ ، ولُزُومُ جَمَاعَتِهِم ، فَإِنَّ دُعَاءَهُم يُحِيطُ مَنْ وَرَاءَهُم» (١) .

وعَن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بالسَّنَاءِ والدِّينِ والرِّفْعَةِ والتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ ، فمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ للدُّنْيا ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» (٢) .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (١٤٤/١) فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ، والحديث له شواهد ومتابعات .

(٢) الترغيب والترهيب للمنذري (٤٨/١) ، وهو صحيح .

واعلموا أنَّ النَّجاةَ في الآخِرَةِ بأنْ لا يُمازِجَ العَملَ ما يَشُوبُه من شَوائبِ إرادَاتِ النَّفسِ ؛ إمَّا طَلَبُ التَّزَيُّنِ في قُلُوبِ الخَلقِ ، وإمَّا طَلَبُ مَدْحِهِم ، والهَرَبُ مِن ذَمِّهِم ، أو طَلَبُ تَعظِيمِهِم ، أو طَلَبُ أمْوَالِهِم ، أو خِدْمَتِهِم ، أو مَحَبَّتِهِم ، وقَضائِهِم حَوَائِجَه ، أو غَيرُ ذَلكَ من العِلَلِ والشَّوائبِ ، التي عَقدُ مُتفَرِّقاتِها هو : إرادَةُ ما سِوَى اللَّهِ بعَمَلِه ، كائناً مَنْ كَانَ .

قِيلَ لحَمْدُونَ بنِ أحمدَ : «ما بَالُ كَلامِ السَّلَفِ أنفَعُ من كَلامِنا ؟» ، قَالَ : «لأنَّهُم تَكلَّمُوا لِعِزِّ الإسْلامِ ، ونَجاةِ النُّفوسِ ، ورِضَا الرَّحمَنِ ، ونَحنُ نَتكَلَّمُ لِعِزِّ النُّفوسِ ، وطَلَبِ الدُّنيا ، ورِضَا الخَلقِ» .

واسمَعْ إلى خَبرِ هذا السَّليمِ الأسْلَمِ المَذكُورِ بالسَّوادِ

الأعْظَمِ ، الطُّوسِيِّ مُحمَّدِ بنِ أسْلَم ، قَالَ خادِمُه : «صَحِبتُ مُحمَّدَ بنَ أسْلَمَ نَيِّفاً وعِشرينَ سَنةً لَمْ أَرَهُ يُصَلِّي حَيثُ أرَاهُ مِنْ التَّطَوُّعِ إلاَّ يومَ الجُمُعَة ، ولا يُسَبِّحُ ولا يَقرَأُ حَيثُ أرَاهُ ، ولَمْ يَكُنْ أحَدٌ أعلَمُ بِسِرِّهِ وعَلانِيَتِهِ مِنِّي ، وسَمِعتُهُ يَحلِفُ كَذَا مَرَّة أنْ لَوْ قَدِرْتُ أنْ أتَطَوَّعَ حَيثُ لا يَراني مَلَكَايَ لَفَعَلتُ ، ولَكنْ لا أستَطِيعُ ذَلكَ ؛ وذكل خَوفاً من الرِّياءِ رَحِمَهُ اللَّهُ .

وهَذا عَامِرُ بنُ عَبدِ قَيْسٍ : ما رُئِيَ مُتَطَوِّعاً في المَسجِدِ قَطُّ ؛ خَشيَةَ الرِّياءِ . وكَانَ مَنْصُورُ بنُ المُعْتَمِر إذَا صَلَّى الغَدَاةَ ؛ أظْهَرَ النَّشَاطَ لأصْحَابِهِ ، فيُحَدِّثُهُم ويُكثِرُ إليهم ، ولَعلَّه إنَّما بَاتَ قائماً على أطْرافِهِ ، كُلُّ ذَلكَ ليُخْفِيَ عَليهِم العَمَلَ . ولَكنْ كَيفَ يُخْفِي اللَّيلُ بَدْراً سَاطعًا ؟!! .

أَسَائِلٌ عَمَّنْ لا أُرِيدُ وإنَّما أُرِيدُكُم من بَينِهِم بِسُؤالي
فَيَعثُرُ ما بَينَ الكَلَامِ ورَجْعِهِ لِسَاني بِكُم حَتَّى يَنِمَّ بحَالي
وأَطْوِي على مَاتَعلَمُونَ جَوَانِحِي وأُظْهِرُ للْعُذَّالِ أَنِّي سَالي

وللَّهِ مَا أَحْلَى قَولَ نَبيِّنا ﷺ في السَّبعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ بِظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ : «ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا ، حَتَّى لا تَعلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ» (١) .

ولِبَيتِ النُّبوَّةِ القَدحُ المُعَلَّى في ذَلكَ ؛ فهَذَا زَينُ العَابِدينَ عَليُّ بنُ الحُسَينِ يقول عنه أبو حمزة الثمالي : كان علي بن الحسين ﴿ يَحمِلُ جِرَابَ الخُبزِ علَى ظَهْرِهِ باللَّيلِ ، فيتَصَدَّقُ به ، ويَقُولُ : «إنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ» . قَالَ جَريرُ : إنَّه حِينَ مَاتَ وَجَدوا بظَهرِهِ آثَاراً ممَّا كَانَ يَحمِلُ باللَّيلِ الجُرُبَ إلَى المَسَاكِينِ ، ولقَد كَانَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ المَدينَةِ

(١) الحديث متفق عليه .

يَعيشُونَ لا يَدرُونَ مِنْ أَينَ كَانَ مَعَاشُهُم ، فَلَمَّا مَاتَ عَلِيُّ ابنُ الحُسَينِ فَقَدُوا مَا كَانُوا يُؤْتَوْنَ به في اللَّيلِ . فَكَيفَ لا ؟!!

وهَذَا الَّذي تَعرِفُ البَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... والبَيتُ يَعرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ
يَكَادُ يُمسِكُهُ عِرْفَانُ راحَتِهِ ... عِندَ الحَطِيمِ إذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
إذَا رَأَتهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا ... إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الكَرَمُ

وكَانَ ابنُ مُحَيْرِيزٍ أَكثَرُ النَّاسِ صَلاةً ، فَلَمَّا شُهِرَ وعُرِفَ ، أَقْصَرَ عن ذَلكَ ، وكَانَ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ ذِكْراً خَامِلاً» .

ضَنَّاً بأَنْ يَعلَمَ النَّاسُ الهَوَى ولِمَنْ ... وَهَبْتُ لِلسِّرِّ فِيهِ لَذَّةُ العَلَنِ
عَرِّضْ بِغَيْرِي ودَعْنِي في ظُنُونِهِم ... إنْ قِيلَ مَنْ بِكَ يُخْفِي الحَقَّ في الظَّنَنِ

الإِخْلاصُ عَزيزٌ جَدٌّ عَزيزٍ ، عَزيزٌ عِزَّ دِرْهَمٍ مِنْ حَلالٍ ، وعِزَّ خَليلٍ وَفِيٍّ .

اعْلمْ أَنَّ رَأسَ الأمْرِ في الإخْلاصِ ، تَركُ الشُّهْرَةِ ، فإنَّها ذَيْلٌ للمَزَلَّةِ والدَّحضَةِ . قَالَ عَبدُ اللَّـهِ بنُ دَاوُدَ الخريبيُّ : «كَانُوا يَستَحبُّونَ أنْ يَكُونَ للرَّجُلِ خَبيئةٌ من عَمَلٍ صَالحٍ ، لا تَعلَمُ به زَوجَتُه ولا غَيرُها» .

وهذا إبراهيمُ النَّخعيُّ الإمَامُ الفَقِيهُ : كَانَ لا يَجلِسُ إلى السَّارِيَةِ في المَسجِدِ ، تَوَقِّياً للشُّهْرَةِ ، وكَانَ يَقُولُ : «تَكَلَّمتُ ، ولَوْ وَجَدتُ بُدَّاً مَا تَكَلَّمتُ ، فإنَّ زَمَاناً أَكُونُ فيه فَقِيهَ الكُوفَةِ لَزَمَانُ سُوءٍ .

وهذا مُحَمَّدُ بنُ يُوسُفَ الأصْبَهانيُّ ، عَرُوسُ الزُّهَّادِ ، كَانَ لا يَشتَرِي مِنْ خَبَّازٍ واحدٍ ، قَالَ : «لَعلَّهُم يَعرِفُونِي فَيُحَابُونِي ، فَأكُونُ ممَّنْ أَعِيشُ بدِينِي .

ولقد دَخَلَ ابنُ مُحَيْرِيزٍ الفَقيهُ حانُوتاً لِيَشتَرِيَ ثَوْباً ،

فقَالَ رَجُلٌ لِصَاحِبِ الحَانُوتِ ، هَذَا ابنُ مُحَيْرِيزٍ ، فأَحْسِنْ بَيْعَه ، فغَضِبَ ابنُ مُحَيْرِيزٍ وخَرَجَ ، وقَالَ : «إنَّما نَشترِي بأَمْوَالِنَا ، لَسْنَا نَشترِي بدِينِنَا» .

وهذا سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ ، أَميرُ المُؤمِنينَ في الحَدِيثِ ، يَقُولُ عَنهُ أحمَدُ : «أَتَدْرِي مَنْ الإمَامُ ؟ الإمَامُ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ ، لا يَتقَدَّمُهُ أحَدٌ في قَلبي» . كانَ رَحِمَهُ اللَّهُ لا يَترُكُ أحَداً يَجلِسُ إلَيه ، إلاَّ نَحْوَ ثَلاثَةِ أنفُس ، فغَفَلَ يَوماً ، فرَأَى الحَلقَةَ قد كَبُرَت ، فقَامَ فَزِعاً ، وقَالَ : «أُخِذْنَا واللَّهِ ولَمْ نَشعُرْ ، واللَّهِ لَوْ أَدرَكَ أَميرُ المُؤمِنينَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِثْلِي وهُوَ جَالِسٌ في هَذا المَجلِسِ ؛ لأَقامَهُ وقَالَ لَهُ : مِثلُكَ لا يَصلُحُ لِذَلِكَ . وكَانَ يَقُولُ : «قَلَّ عَالِمٌ تَكبُرُ حَلقَةُ دَرْسِهِ ، إلاَّ ويَدخُلُه العُجْبُ . فكَيفَ لَوْ رَأَى

حَالَ أَهْلِ زَمَانِنَا من الرِّهَانِ والسَّبقِ على التَّسجِيلَاتِ الصَّوتِيَّة لأصْوَاتٍ وتَرانِيمَ يَعلُو فيها النَّحيبُ والنَّشيجُ والبُكَاءُ والصِّيَاحُ في قِيَامِ رَمَضَانَ ، وتُصَدَّرُ بحُقُوقٍ مَحفُوظَةٍ ، فهَلْ هَذَا من الإخْلاصِ في شَيءٍ !!؟ ، وهَلْ لا تَستَقِيمُ الصَّلاةُ إلاَّ بالتَّسجِيلِ والنَّشرِ ، فَأينَ الإخْلاصُ يا دُعَاةَ الحَقِّ ؟ ارْبِعُوا على أنفُسِكُم ! فالإخْلاصُ عَزيزٌ ، ولا يَصلُحُ لكُلِّ أحَدٍ أنْ يَدَّعيهِ ، وما هَكَذا تُورَدُ الإبِلُ ، وما هَكَذا يَكُونُ مُسْتَراحُها ومَنَاخُهَا ، فإنَّ أقْبَحَ الرَّغبَةِ أنْ تُطلَبَ الدُّنيا بعَمَلِ الآخِرَةِ ، فاحذَرُوا فوَاللَّهِ ما اتَّقَى اللَّهَ مَنْ طَلَبَ الشُّهْرَةَ .

قَالَ الثَّورِيُّ : «البُكَاءُ عَشْرَةُ أجْزاءٍ ؛ تِسْعَةٌ لِغَيرِ اللَّهِ ، وواحِدٌ للَّهِ ، فإذا جَاءَ الذي للَّهِ في السَّنَةِ مرَّةً فهو كَثيرٌ» .

وقَالَ : «إذا استَكمَلَ العَبدُ الفُجُورَ ، مَلَكَ عَيْنَيْهِ ، يَبكِي بهما مَتَى شَاءَ . وصَدَقَ عِيسَى بنُ زَاذَانَ حَيثُ يَقُولُ : «يَأتِي على النَّاسِ زَمَانٌ يَسكُنُ الشَّيطَانُ في أَعْيُنِ النَّاسِ ، فمَنْ شَاءَ أنْ يَبكِي بَكَى .

وهَذا أَيُّوبُ السِّخْتيانيُّ ؛ كَانَ إذَا وَعَظَ فَرَقَّ ، فَرِقَ من الرِّياءِ ، فيَمسَحُ وَجهَهُ ، ويَقُولُ : «مَا أَشَدَّ الزُّكَامَ» !!

وكَانَ أبو وَائلٍ إذَا صَلَّى في بَيتِه يَنشُجُ نَشيجاً ، ولَوْ جُعِلَت له الدُّنيا على أنْ يَفعَلَهُ وأحَدٌ يَراهُ ما فَعلَه . فكَيفَ بمَنْ يَنهَمِلُ علَيه النَّاسُ انْهِمَالَ المَطَرِ؟ فتَعلُو الأصْوَاتُ ، ويَتكَلَّفُ فيه في الدَّعَوَاتِ واخْتِيارِ الكَلِمَاتِ . بَلْ كَيفَ بأصْحَابِ العَمائمِ على القَنوَاتِ في المُناسَباتِ الدِّينيَّة كمَا يُسَمُّونَها ، وهم يَتَربَّعُونَ على المِنَصَّاتِ ، يَنتَحِلُونَ

أدْوَاراً دِرامِيَّةً تَمثيلِيَّةً ؛ لِيُبْكُوا النَّاسَ ويُعلِّمُونَهُم فُنُونَ النَّحِيبِ والنَّشِيجِ ، أمْ كَيفَ بالدَّعَوَاتِ الجَماعِيَّة على مَسْمَعٍ ومَرأَى في المَرئيَّاتِ ، ويَظهَرُ فيها ما يَدحَضُ الإخْلاصَ من قاعِدَتِه ، ويَهدِمُ الصِّدقَ مع اللَّـهِ تَعالَى من أُسِّـهِ ، فهَلْ هَذا من الإخْلاصِ في شَيءٍ ؟ فاتَّقُوا اللَّـهَ مَجَامعَ المُتَزَيِّنينَ ، فاللَّـهُ أعلَمُ بالسِّرِّ وأخْفَى .

يَقُولُ زَينُ القُرَّاءِ مُحمَّدُ بنُ واسعٍ : «لقَد أدرَكتُ رِجَالاً ، كان الرَّجُلُ يَكُونُ رَأسُهُ مع رَأسِ امْرأتِهِ علَى وِسَادَةٍ واحِدَةٍ ، قَدْ بَلَّ مَا تَحتَ خَدِّهِ من دُمُوعِهِ ، لا تَشعُرُ به امْرأتُهُ ، ولقَد أدرَكتُ رِجَالاً ، يَقُومُ أحَدُهُم في الصَّفِّ ، فتَسيلُ دُمُوعُهُ على خَدِّهِ ، ولا يَشعُرُ به الذي إلى جَنبِهِ ، لا وبَلْ إنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَبكِي عِشرِينَ سَنةً وامْرأتُهُ مَعَه لا تَعلَمُ به . واللَّـهِ إنَّها لأَغْرَبُ من الخَيالِ .

أَحْبِسُ دَمْعِي فَيَنِدُّ شَارِدَاً كَأَنَّنِي أَضبِطُ عَبْدَاً آبِقاً
ومِنْ مُحَاشَاةِ الرَّقِيبِ خِلْتَنِي يَوْمَ الرَّحِيلِ فِي الهَوَى مُنَافِقَاً

قَالَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة : «أَصابَتنِي ذَاتَ يَومٍ رِقَّةٌ فبَكَيتُ ، فقُلتُ في نَفسِي : لَوْ كَانَ بَعضُ أَصْحابِنَا مَعِي ، لَرَقَّ مَعِي ، ثُمَّ غَفَوْتُ ، فأَتَاني آتٍ في مَنَامِي ، فرَفَسَني ، وقَالَ : يا سُفْيانُ ، خُذْ أَجرَكَ مِمَّن أَحْبَبتَ أنْ يَراكَ» .

إنَّ الزَّمانَ قد تَبيَّنَ للعَاقِلِ تَغيُّرَهُ ، ولَاحَ للَّبِيبِ تَبَدُّلَه ، حَيثُ يَبِسُّ ضَرْعَهُ بَعدَ الغَزارَةِ ، وذَبُلَ فَرعُهُ بَعدَ النَّضارَةِ ، ونَحلَ عُودُهُ بَعدَ الرُّطُوبَةِ ، وبَشُعَ مَذَاقُهُ بَعدَ العُذُوبَةِ ، فتَغيَّرَت الأَحْوَالُ ، وذَهَبَ صَفَاءُ الصِّدْقِ مَعَ اللَّهِ فِي كَثيرٍ من المُعَامَلاتِ .

أَوَّلُ شُعَبُ العَقْلِ والتَّوفِيقِ للحَقِّ ، هُوَ لُزُومُ التَّقوَى للَّهِ ، وإِصْلاحُ السَّريرَةِ ؛ لأَنَّ مَنْ صَلُحَ جُوَّانِيهُ أَصلَحَ

اللَّـهُ بَرَّانِيهِ ، ومَنْ فَسَدَ جُوَّانِيهُ أَفسَدَ اللَّـهُ بَرَّانِيهِ .

وصَدَقَ النَّبيُّ ﷺ إذْ يَقُولُ : «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ في صَخْرَةٍ صَمَّاءَ ، لَيسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ ؛ لَخَرَجَ عَمَلُهُ كَائِنَاً مَا كَانَ» (١) .

قَالَ مَالِكُ بنُ دِينَارَ : «اتَّخِذْ طَاعَةَ اللَّـهِ تِجَارَةً ، تَأتِكَ الأَربَاحُ من غَيرِ بِضَاعَة» . فقُطْبُ الطَّاعَاتِ لِلمَرْءِ في الدُّنيا هو إصْلاحُ السَّرائرِ ، وتَركُ إفْسَادِ الضَّمائرِ . فلا أَعلَمُ وَاجِباً أَوْجَبُ على العَبدِ من الاهتِمامِ بإصْلاحِ سَريرَتِهِ ، والقِيَامُ بحِرَاسَةِ قَلبِهِ عندَ إقْبالِهِ وإدْبَارِهِ ، وحَرَكَتِهِ وسُكُونِه ؛ لأنَّ تَكَدُّرُ الأوْقَاتِ وتَنَغُّصُ اللَّذَّاتِ لا يَكُونُ إلاَّ عِندَ فَسَادِهِ .

---

(١) **مجمع الزوائد للهيثمي (٢٢٨/١٠) ، الجامع الصغير للسيوطي .**

عن أَنَسِ بنِ مَالِك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «مَنْ فَارَقَ الدُّنْيا علَى الإخْلَاصِ لِلَّـهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَقَامَ الصَّلَاةَ ، وآتَى الزَّكَاةَ ، فَارَقَهَا واللَّـهُ عَنْهُ رَاضٌ» (١) .

وعن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّه قَالَ حِينَ بَعَثَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى اليَمَنِ : «يا رَسُولَ اللَّـهِ أَوْصِنِي» ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ العَمَلُ القَلِيلُ» (٢) . إيه واللَّـهِ فَطُوبَى للمُخْلِصِينَ ، أُولئِكَ قَومٌ مَصَابِيحُ الهُدَى ، تَنْجَلِي عَنهُم كُلُّ فِتنَةٍ ظَلْمَاء .

وصَدَقَ عَبدُ العَزيزِ الأَبْرَش حِينَما أَنشَدَ :

---

(١) سنن ابن ماجه ، الترغيب والترهيب للمنذري ، معجم الشيوخ لابن عساكر ، والحديث إسناده حسن .

(٢) الترغيب والترهيب للمنذري ، الجامع الصغير للسيوطي .

يُلْبِسُ اللَّـهُ في العَلانِيَةِ العَبدَ الذي كَانَ يَخْتَفِي في السَّريرَة
حَسَناً كَانَ أو قَبيحاً سَيُبدِي كُلُّ مَا كَانَ ثَمَّ مِنْ كُلِّ سِيرَة
فَاسْتَحِ اللَّـهَ أَنْ تَرَائى لِلنَّاسِ فَإِنَّ الرِّيَاءَ بِئْسَ الذَّخِيرَة

فمَا واللَّـهِ أَضَرَّ علَى العَبدِ مِنْ عَمَلٍ يَعمَلُهُ ، أو قَوْلٍ يَقُولُهُ ، لا يُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّـهِ تَعَالَى ، جَمِيلٌ ظَاهِرُهُ ، قَبيحٌ بَاطِنُهُ ، يُسِرُّ غَيرَ مَا يُعْلِنُ ، ويُظْهِرُ خِلَافَ مَا يُبْطِنُ ، يُسَبِّحُ ويُهَلِّلُ ، ويَقْرَأُ القُرآنَ ، ويَخْطُبُ ، ويُعَلِّمُ ، ويَدْعُو إلى اللَّـهِ بلِسَانِه ، وقَلْبُهُ غَافِلٌ ذَاهِلٌ ، وبغَيرِ اللَّـهِ مَشغُولٌ ، وعلى سِوَاهُ مُعَوِّلٌ ومُتَّكِلٌ ، وحَسبُهُ من الخَيرِ ثَناءُ الجَاهِلِينَ عليه ، واستِمَالَةُ قُلُوبِهِم إليه ، إذَا قَرَأَ جَوَّدَ ، وإذَا وَعَظَ بَكَى وأَبْكَى ، وإذَا خَطَبَ أو دَرَّسَ لَمْ يُلْحِنْ ، وجَاءَ بمَا يَعْجَبُ منه النَّاسُ ، ولَوْ أَخْلَصَ لِلَّـهِ قَلبَهُ ؛ لَكَانَ الزَّعِيمَ المُطَاعَ ، والمُصلِحَ الحَكِيمَ ، والمُرشِدَ العَظِيمَ .

إنَّ مُفارَقَةَ الإخْلَاصِ وإغْفَالَ تَعاهُدِ إصْلَاحِ السَّرائِرِ ، أَمرٌ جَلَلٌ ، وخَطبٌ عَضلٌ ، ومُصِيبَةٌ لا سَلْوَى عَنْها ، وفَظيعَةٌ لا مَلْهَى لهَا ، فأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ نَعَم ! قَدْ أَفلَحَ مَنْ أخلَصَ قَلبَهُ للإيمَانِ ، وجَعَلَ قَلبَهُ سَليماً ، ولِسَانَهُ صَادِقاً ، ونَفسَهُ مُطمَئِنَّةً ، وخَلِيقَتَهُ مُستَقِيمَةً ، وجَعَلَ أُذُنَهُ مُستَمِعَةً ، وعَينَهُ ناظِرَةً ، فأمَّا الأُذُنُ فقُمْعٌ ، والعَيْنُ فمَقَرَّةٌ بما يُوعِي القَلبُ ، وقَد أَفلَحَ مَنْ جَعَلَ قَلبَهُ وَاعِياً .

كُلُّنا وُقُوفٌ في هَذِه الدُّنْيا نَنتَظِرُ آجَالَنَا ، وعِندَ المَوْتِ نَلقَى الخَبَرَ ، فلْنَأخُذْ مِمَّا عِندَنَا اليَومَ ، لِمَا بَعدَ ذَلكَ غَداً ؛ من التَّزَوُّدِ من التَّقوَى والعَمَلِ الصَّالِحِ ، بإصْلَاحِ السَّرائِرِ، ونَفْيِ الفَسَادِ عن خِلَلِ الطَّاعَاتِ عِندَ إجَابَةِ القَلبِ وإبَائِه ، فإذَا كَانَ صِحَّةُ السَّبيلِ في إقْبالِه مَوْجُوداً ، أَنْفَذَهُ بأعْضَائِهِ ،

وإنْ كَانَ عَدَمُ وُجُودِهِ مَوْجُوداً ، كَبَحَهُ عَنهَا ؛ لأنَّ بصَفَاءِ القَلبِ تَصفُو الأعْضَاءُ .

عن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسَنَدٍ مَوقُوفٍ علَيه ، أنَّه قَالَ : «يُجَاءُ بالدُّنيا يَومَ القِيامَةِ ، فيُقَالُ : مَيِّزُوا مَا كَانَ مِنْهَا لِلَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيُمَازُ ، ومَا كَانَ لِغَيرِ اللَّـهِ ، يُرْمَى في النَّارِ» [1] . حَقّاً أيُّها المُوَحِّدُونَ ، فمَنْ سَمَّعَ ، سَمَّعَ اللَّـهُ بِهِ ، ومَنْ يُرائِي يُرَاءِ اللَّـهُ بِهِ [2] ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [3] .

وإنَّ امْرأً لَمْ يَصْفُ لِلَّـهِ قَلبُهُ ... لَفِي وَحْشَةٍ مِنْ كُلِّ نَظْرَةِ نَاظِرِ
وإنَّ امْرأً لَمْ يَرْتَحِلْ بِبِضَاعَةٍ ... إلَى دَارِهِ الأُخْرَى فَلَيْسَ بِتَاجِرِ

(١) الترغيب والترهيب للمنذري (٤١/١) .
(٢) من حديث جندب بن عبد اللَّه البجلي ■، والحديث متفق عليه .
(٣) سورة الكهف ، الآية : ١١٠ .

وإِنَّ امْرأً ابْتَاعَ دُنْيَا بِدِينِهِ لَـمُنْقَلِبٌ مِنْهَا بِصَفْقَةِ خَاسِرٍ

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «يَخرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتَلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنْ اللِّينِ ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنْ الْعَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَبِيَ يَغْتَرُّونَ ، أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ ؟ فَبِيَ حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ حَيْرَانَ» (١) .

(١) الترغيب والترهيب للمنذري (١/٥٠) ، جامع الترمذي ، شرح السنة للبغوي (٧/٣٩٠) .

لا أرفع صوتي إلاّ كأخِ السِّرَارِ

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُم فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْـمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْـمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْـخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْـمُفْلِحُونَ﴾ (١) ، فَألزَمَ المُؤمِنينَ نُصْرَتَهُ وتَعْزِيرَهُ وتَوْقِيرَهُ فَقَالَ سُبحَانَهُ : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (١) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧ .

(١) سورة الفتح ، الآيتان : ٨ ، ٩ .

صَلَّى اللَّهُ على الأَغَرِّ مَبْسَمَا ... كَأَنَّ مَا بَينَ حَبِّ الغَمَامِ البَرَدُ
تَجرِي السِّوَاكُ على أَغَرٍّ كَأَنَّهُ ... بَرْدٌ تَحَدَّرَ من مُتُونِ غَمَامِ
أَمِينٌ مُصْطَفَىً لِلخَيرِ يَدْعُو ... كَضَوْءِ البَدرِ زَائلَةَ الظَّلَامِ
لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيءٍ سِوَى بَشَرٍ ... كُنْتَ الـمُـنَوِّرُ لَيلَةَ البَدْرِ
عَيْنَايَ جُودِي بالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ ... على المُصْطَفَى كَالبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
على المُرتَضَى لِلبِرِّ والعَدْلِ والتُّقَى ... ولِلدِّينِ والدُّنيَا مُقِيمُ المَعَالِمِ
على الصَّادِقِ المَيْمُونِ ذِي الحِلْمِ والنُّهَى ... وذِي الفَضْلِ والدَّاعِي لِخَيْرِ التَّرَاحُمِ
فهُوَ الذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وصُورَتُهُ ... ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ
مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ في مَحَاسِنِهِ ... فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فِيهِ غَيرُ مُنْقَسِمِ

عن أبي سَعيد الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «أَيُّما رَجُلٌ مُسْلِمٌ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ صَدَقَةٌ ، فَلْيَقُلْ في دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ ورَسُولِكَ ، وَصَلِّ عَلَى

المُؤمِنِـينَ والمُؤْمِنَـاتِ والمُسْلِمِينَ والمُسْلِمَاتِ ؛ فإِنَّهَا لَهُ زَكَاةٌ» (١) .

رَوَى ابنُ حُمَيد قَالَ : «نَاظَرَ أبو جَعفَرَ المَنصُورِ ـ الخَليفَةُ العَبَّاسيُّ ـ مَالِكاً في مَسجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وكَانَ بَينَ يَدَي الخَليفَة في ذلك اليَومِ خَمْسمائَة سَيفٍ ، فقَالَ له مَالكٌ : يا أَميرَ المُؤمِنينَ لا تَرفَعْ صَوْتَكَ في هذَا المَسجِدِ ، فإنَّ اللَّهَ تَعالَى أدَّبَ قوماً ، فقَالَ : ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبيِّ﴾ (٢) ، ومَدَحَ قوماً ، فقَالَ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُم عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ (٣) وذَمَّ قَوماً ، فقَالَ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ

(١) الأدب المفرد للبخاري ، الترغيب والترهيب للمنذري ، وإسناده فيه ضعف .

(١) سورة الحجرات ، الآية ٢ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية ٣ .

أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [1] ، وإنَّ حُرمَةَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ مَيْتاً كَحُرمَتِه حَيَّاً ، فاسْتَكَانَ الخَليفَةُ لَهُ وتَأَدَّبَ .

فلَيسَ من الأدَبِ أنْ يُخاطَبَ النَّبيُّ ﷺ في حَياتِهِ ولا بَعدَ مَمَاتِهِ باسْمِهِ مُجرَّداً ، بمُحمَّدٍ أو أَحمَد ، إلاَّ أنْ يُقرِنَ ذَلكَ بالصَّلاةِ والسَّلَامِ عَلَيه ، أو بيَا نَبيَّ اللَّـهِ وبيَا رَسُولَ اللَّـهِ ، تَوْقِيراً لهُ واحْتِراماً ، ولَمْ يُسَمِّيهِ باسْمِهِ ويُنادِيهِ به إلاَّ الكُفَّارُ والمُنافِقُونَ .

أَخرَجَ البَيْهَقيُّ عن عَلْقَمَةَ والأَسْوَدِ في تَفسيرِ الآيَةِ السَّابقَةِ : «لا تَقُولُوا : يا مُحمَّدُ ، ولَكِن قُولُوا : يا رَسُولَ اللَّـهِ ، يا نَبيَّ اللَّـهِ» [2] .

(١) سورة الحجرات ، الآية ٤ .
(٢) البيهقي في السنن الكبرى .

وأَخرَجَ أبو نُعَيم عن قَتَادَة في الآيَةِ السَّابقَةِ ، قَالَ : «أَمَرَ اللَّـهُ تَعالَى أنْ يُهَابَ نَبيُّه وأنْ يُعَظَّمَ ويُفَخَّمَ ويُسَوَّدَ [١] .

وقد كَرِهَ جَمعٌ من أهْلِ العِلمِ رَفْعَ الصَّوْتِ في مَسجِدِهِ وعِندَ قَبرِهِ ﷺ ، وكَرِهَ بَعضُ العُلَماءُ رَفْعَ الصَّوتِ في مَجَالِسِ العُلَماءِ والعِلْمِ ، تَشْريفاً لَهُم ، إذْ هُمْ وَرَثَةُ الأنْبيَاءِ ، وتَأدُّباً مع وَصِيَّةِ النَّبيِّ ﷺ ، وحُرمَتِه ﷺ حَيَّاً كَحُرْمَتِه مَيْتاً ، وكَلامُهُ المَأْثُورُ بَعدَ مَوتِهِ في الرِّفْعَةِ مِثَالُ كَلَامِهِ المَسْمُوعِ من لَفظِهِ ﷺ ، فإذَا قُرِئَ كَلامُهُ وتُلِيَ بَيانُه ، وَجَبَ على كُلِّ حاضِرٍ ألاَّ يَرفَعَ صَوتَه عَلَيه ﷺ ، ولا يُعْرِضْ عَنهُ ، كَمَا كَانَ يَلزَمُهُ ذَلكَ في مَجلِسِه ﷺ عِندَ تَلفُّظِهِ به .

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم .

كَانَ إمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ ، الإمَامُ مَالكُ بنُ أَنَسٍ لا يُحَدِّثُ إلاَّ وهُو علَى طَهَارَةٍ ، إجْلالاً لحَدِيثِ النَّبيِّ ﷺ وتَأَدُّباً معَه ﷺ ، وكَذلكَ كَانَ يَصنَعُ قَتَادَةُ المُفَسِّرُ . وإذَا كَانَ مَجلِسُ الحَديثِ ، فإنَّه يَأمُرُ بالمِجْمَرَةِ ، فيُعَطِّرُ بها المَجلِسَ ، ثُمَّ يَأذَنُ بالحَدِيثِ عن النَّبيِّ ﷺ ، وكَانَ لِمَقَامِ النَّبيِّ ﷺ لا يَركَبُ دَابَّةً بالمَدينَةِ ، ويَقُولُ : أُوَقِّرُ أَرضاً دُفِنَ فيها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وحُقَّ لإمَام دَارِ الهِجْرَةِ أنْ يَبلُغُ به ما بَلَغَ ، فمَا واللَّهِ بَلَغَ تِلكَ المَنزِلَةَ إلاَّ بالأدَبِ ، قَالَ ابنُ وَهْبٍ : ما نَقَلنَا من أَدَبِ مَالكٍ أكْثَرَ مِمَّا تَعلَّمْنا من عِلمِه . واسْمَع إلى أيِّ مَدَى بَلَغَ به الأدَبُ مع النَّبيِّ ﷺ ، قَالَ ابنُ القَاسِمِ : قِيلَ لِمَالكٍ : «لمَ لا تَأخُذُ عن عَمرُو ابنِ دِينَارٍ» ؟ قَالَ : «أَتَيتُهُ ، فوَجَدتُه يَأخُذُونَ عَنهُ قِيَاماً ، فأَجْلَلتُ حَديثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ آخُذَهُ قَائماً .

ولَـمَّا قَدِمَ وَفدُ عَبدِ القَيسِ من اليَمَنِ علَى رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، فكَانُوا عَلَى رَوَاحِلِهم ، فلَمَّا رَأَوْا رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ رَمَوْا بأَنفُسِهِم عن رَوَاحِلِهِم ، فمِنْهُم مَنْ سَعَى سَعْياً ، ومِنْهُم مَنْ هَرْوَلَ ، ومِنْهُم مَنْ مَشَى ، حتَّى أَتَوْا رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ ، فأَخَذُوا بِيَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ يُقَبِّلُونَهُمَا ، وقَعَدُوا إليه ، يَقُولُ قَائِلُهُم : فمَا تَمالَكْنَا لَـمَّا رَأَينَا رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ أنْ وَثَبْنا عن رَوَاحِلِنَا [1] .

إذَا وَجَدتُ أُوَارَ الحُبِّ في كَبِدِي ... غَدَوْتُ نَحْوَ سِقَاءِ الْـمَاءِ أَبْتَرِدُ
هَذَا بَرُدَتْ بِبَرْدِ الْـمَاءِ ظَاهِرُهُ ... فَمَنْ لِنَارٍ عَلَى الأَحْشَاءِ تَتَّقِدُ

واسْمَع إلَى أدَبِ العَـبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع المُصْطَفَى ﷺ مَا ذَكَرَهُ ابنُ عَبدِ البَرِّ في التَّمهِيدِ في حَادِثَةِ غُسْلِ النَّبيِّ ﷺ

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٣٩١/٩) ، وهو حسن .

عِندَ مَوْتِه ، قَالَ : «ورُوِيَ مِنْ وَجْهٍ آخَر أنَّ العَبَّاسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ بِالبَابِ لَمْ يَحْضُر الغُسْلَ ، يَقُولُ : «لَمْ يَمنَعنِي أنْ أَحْضُرَه إلاَّ أنِّي كُنتُ أَرَاهُ ﷺ يَسْتَحْيِي أنْ يَرانِي أرَاهُ حَاسِراً . وعَنْ أبي زُرَيْق قَالَ : قِيلَ للعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «أَنْتَ أكبَرُ أوْ النَّبيُّ ﷺ ؟» قَالَ بِجَوَابِ المُؤدَّبِ بأدَبِ المَلائِكَةِ : «هُوَ أَكْبَرُ مِنِّي ، وَأَنَا وُلِدْتُ قَبلَهُ» .

نَفسُ الجَوَادِ الكَرِيمِ بَاقِيَـةٌ ... فِيهِ وإنْ كَانَ مَسَّهُ عُجْفُ
والحُرُّ حُرٌّ وإنْ أَلَمَّ بِه الضُّرُّ ... وفِيـهِ الحَـيَاءُ والأُنفُ
كَرِيمٌ يَغُضُّ الطَّرفَ فَضْلُ حَيائِه ... ويَدنُو وأَطْرَافُ الرِّمَاحُ دَوَانِي

وهَذا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَـمَّا نَزلَ قَولُ اللَّـهِ تَعالَى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (١) ،

(١) سورة الحجرات ، الآية : ٢ .

وقَولِهِ سُبْحانَه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ (١) ، قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «واللَّهِ لا أَرفَعُ صَوْتِي إلاَّ كَأَخِي السِّرَارِ ، والذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لا أُكَلِّمُكَ بَعدَ هَذَا إلاَّ كَمَنْ يُسَارُّكَ» (٢) .

وكَانَ الفَارُوقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يُكَلِّمُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلاَّ هَمْساً ، حتَّى أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسْتَفهِمُه مِمَّا لا يَسْمَعُهُ .

رُوحُ العِبادَةِ في الإجْلَالِ والمَحَبَّةِ المُقتَضِيَتَانِ للأَدَبِ ، الغَيرِ مُعارَضَتَينِ بالمُجَافَاةِ في حَقِّ المُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَافَت اليَهُودُ أنْبِياءَها ، ولا بالمُغَالَاةِ في حَقِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمُغَالَاةِ النَّصَارَى في حَقِّ عِيسَى بنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ،

(١) سورة الحجرات ، الآية : ٣ .

(٢) صحيح البخاري ، مجمع الزوائد للهيثمي (١١١/٧) ، مسند البزّار (٢٠٠/١) .

ورَأسُ الأدَبِ مَعَهُ ﷺ يَتمَثَّلُ في الإذْعَانِ لأوَامِرِهِ ، والخُضُوعِ لِقَضَائِهِ وحُكْمِهِ ، وعَدَمِ الاخْتِيَارِ علَى مُرَادِهِ وهَوَاهُ ﷺ ، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (١) .

ومِنهُ وُجُوبُ تَوحِيدِهِ بتَحْكِيمِهِ والتَّفْويضِ إلَيه ، وسَلَامَةِ الظَّاهِرِ والبَاطِنِ لمَا قَضَى وأَنفَذَ ، والتَّسلِيمِ لَه رِضاً وحُبَّاً وإذْعَاناً وتَسْلِيماً كَامِلاً ، كَمَا وُحِّدَ المُرسِلُ سُبحانَه وتَعالَى بالعِبَادَةِ والخُضُوعِ والذُّلِّ ، فكَذلِكَ تَوحِيدُ المُرسَل عليه السلام ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (٢) ، والانْقيادُ لأَمْرِه وتَلَقِّي

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

خَبَرَه بالقَبُولِ والتَّصدِيقِ ، دُونَ أَنْ يُحَمِّلهُ مُعارَضَةَ خَيَالٍ أو خَبَالٍ باطِلٍ يُسَمِّيهِ مَعْقُولاً ، نَقُولُ له : قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ كَذَا وكَذَا ، فيَقُولُ سَيِّءُ الأدَبِ ، عَديمُ الفَهْمِ : «لَكنَّ العَقلَ والمَنطِقَ يَقُولانِ كَذَا وكَذَا» ، فتَعْساً لِمثلِ هَذَا مَثَلاً ، وسُحْقاً لرَجُلٍ أدَّبَته الشَّياطينُ ، وتَربَّى على أدَبِ فِرْعَونَ وهَامَانَ وأَبي جَهْلٍ وأُمَيَّةِ بنِ خَلَف ، فَجَاجَةً ووَقَاحَةً ، بَجَاحَةً وقَسْوَةً . فلا يَجُوزُ تَقديمُ آرَاءِ الرِّجَالِ وزِبَالاتِ الأوْهَامِ والأذْهَانِ على قَوْلِه ﷺ ، فقَولُهُ لا يَحتَمِلُ الشَّكَّ أو الشُّبهَةَ ، بلْ هو الوَحيُ الصَّافي والنُّورُ السَّاطعُ ، ورَأسُ الأدَبِ مَعَه ﷺ أنْ لا يُحاكِمَ إلى غَيرِه ، ولا يَرضَى بحُكمِ غَيرِهِ ، ولا يَقِفُ تَنفِيذُ أَمرِهِ ، وتَصدِيقُ خَبَرِه ؛ على عَرضِهِ على قَولِ المَشايخِ

والأئمَّةِ ورُؤسَاءِ المَذاهِبِ والطَّوَائفِ والمُعَظَّمِينَ عندَ أَتباعِهِم ، فإنْ أَذِنُوا لَه نَفَّذَ وقَبِلَ ، وإلاَّ فلَا، فوَاللَّـهِ مَنْ فَعَلَ هَذَا ، فهُو من الهَالِكِينَ فلأن يَلْقَى العَبدُ رَبَّه بكُلِّ ذَنبٍ على الإطْلاقِ ـ ما خَلا الشِّركَ باللَّـهِ ـ خَيرٌ له من أنْ يَلقَاهُ جافَياً لسُنَّةِ نَبيِّه مُعْرِضاً عن تَحكِيمِها والرِّضَا بها والتَّسلِيمِ لحُكْمِهِ .

فمِنْ كَمَالِ الأدَبِ معَه ﷺ مَا كَانَ أدَبُ الخَوَاصِّ معَه من الصَّحَابَةِ والمَرْضِيِّينَ والأَصْفياءِ النَّقيِّينَ ، بأنْ لا يَتقَدَّمَ بَينَ يَدَيْهِ بأمْرٍ ولا نَهْيٍ ولا إذْنٍ ولا تَصَرُّفٍ ، حتَّى يَأمُرَ هو ويَنهَى ويَأذَنَ ، وهذا باقٍ حُكمُه إلى يَومِ القِيامَةِ ، ولَمْ يُنسَخْ ؛ لأنَّ الآدَابَ من جُملَةِ مَعَالي الأُمُورِ وفَضَائلِ الخِصَالِ ، فَلا يَطرَأُ علَيها نَسخٌ ، فالتَّقدُّمُ بَينَ

يَدَيْ سُنَّتِه بَعدَ وَفَاتِه ، كالتَّقدُّمِ بَينَ يَدَيْه في حَياتِه ، ولا فَرقَ بينَهُما عندَ ذَوِي البَصَائرِ والأفْهَامِ .

ومن الأدَبِ مَعَه ﷺ : أنْ لا تُرفَعَ الأصْوَاتُ فَوقَ صَوْتِه ، فإنَّه سَبَبٌ لحُبُوطِ الأعْمَالِ ، فمَنْ التَمَسَ الكَمَالَ ، فَلْيَـتأدَّبْ عِندَ مُدارَسَةِ سُنَّتِه وقِراءَةِ أقْوَالِه وأفْعالِه .

ومِنْ سُوءِ الأدَبِ : الجُرأَةُ على تَضْعيفِ أحَادِيثِه بغَيرِ مُبرِّرٍ ، ولا عِلمٍ ولا هُدَىً ، وإنَّما هو التَّقليدُ والتَّبَعيَّة .

ومِنْ سُوءِ الأدَبِ : الجُرأَةُ بالقَولِ عَليه بمَا لَمْ يَقُلْ وكِلَا الأمْرَينِ ذَميمٌ وخَطيرٌ . فلَا يَنبَغِي لِلمُوَحِّدِ أنْ يَرفَعَ الآراءَ ونَتائجَ الأفْكَارِ علَى سُنَّتِه ومَا جَاءَ به .

ومِنْ الأدَبِ مَعَه ﷺ : أنْ لا يُستَشكَلَ قَولُهُ ، بلْ تُستَشكَلُ الآرَاءُ لقَوْلِه ، ولا يُعارَضُ نَصُّه بقِيَاسٍ ، بلْ تُهدَرُ

الأقْيِسَةُ وتُلقَى لِنُصُوصِهِ ﷺ ، ولا يُحَرَّفُ كَلَامُهُ عن حَقيقَتِهِ لخَيَالٍ ووَهْمٍ ، ولا يُوقَفُ قَبُولُ ما جَاءَ به ﷺ على مُوَافَقَةِ أحَدٍ ، فكُلُّ هذا قِلَّةُ أدَبٍ معَه ﷺ وهُو عَينُ الجُرأَةِ عليه ﷺ .

وَرَدَ أنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَمَدَ إلى مِيزَابٍ للعَبَّاسِ على مَمرِّ النَّاسِ فقَلَعَه ، فقَالَ العَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «أَشْهَدُ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الذي وَضَعَه في مَكَانِه» ، فأَقْسَمَ عُمَرُ للعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : «لَتَصْعَدَنَّ على ظَهْرِي ولَتَضَعنَّه مَوْضِعَه ؛ حِفْظًا للأدَبِ مع النَّبيِّ ﷺ في وَضْعِهِ المِيزَابَ بيَدِهِ الشَّريفَةِ .

وهذا أبو أيُّوبَ الأنْصارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَدَّثَ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ في بَيْتِنا الأسْفَلِ وكُنتُ في الغُرفَةِ ،

فأُهْرِيقَ مَاءٌ في الغُرفَةِ ، فقُمتُ أنَا وأمُّ أيُّوبَ بقَطِيفَةٍ لنَا نَتتَبَّعُ المَاءَ خَشْيَةَ أنْ يتَسرَّبَ على النَّبيِّ ﷺ وهُوَ في غُرفَتِه بالأسْفَلِ ، يَقُولُ : ونزَلتُ ، فقُلتُ : يا رَسُولَ اللَّـهِ ، لا يَنبَغِي أنْ نَكُونَ فَوْقَكَ ، انْتَقِلْ إلى الغُرفَةِ التي في الأَعْلَى ، فأُمِرَ بمَتاعِهِ فنُقِلَ ، ومَتَاعُهُ قَليلٌ ﷺ . قُلتُ : يا رَسُولَ اللَّـهِ ، كُنتَ تُرسِلُ بالطَّعَامِ ، فأَنظُرُ فإذَا رَأيتُ أثَرَ أصَابِعِكَ ، وَضَعتُ فيه يَدِي . وهَلْ في الأدَبِ مَلامَةٌ أو عُذْلٌ ، وهَلْ يُلَامُ مَنْ أحَبَّ كَحُبِّهِم للنَّبيِّ ﷺ وإجْلَالِهِم لَـهُ .

ومِنْ أدَبِهِم معَه ﷺ ، أنَّهم لَمْ يَكُونُوا يَجْرُؤُوا أنْ يَملأوُا أَعيُنَهُم مِنْه ﷺ ، يَقُولُ عَمرُو بنُ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «مَا كَانَ أَحَدٌ أحَبُّ إليَّ مِنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، ولا أَجَلَّ

في عَينِي مِنْه ، ومَا كُنتُ أُطِيقُ أنْ أمْلأَ عَينَيَّ مِنْه إجْلَالاً له حتَّى لَوْ قِيلَ لي : صِفْهُ مَا استَطَعتُ أنْ أصِفَه» .

وهَذا ثَوْبَانُ خادِمُه ﷺ يَقُولُ للنَّبيِّ ﷺ عِندَما رَآهُ لَـمَّا غَابَ عَنه طُولَ اليَومِ : «أَوْحَشْتَنِي يَا رَسُولَ اللَّـهِ» ، وبَكَى ، فقَالَ له النَّبيُّ ﷺ : «أَهَذا يُبكِيكَ ؟» قَالَ ثَوْبَانُ : «لا يا رَسُولَ اللَّـهِ ، ولَكِنْ تَذَكَّرتُ مَكَانَكَ في الجَنَّةِ ومَكَاني فذَكَرتُ الوَحْشَةَ» ، فقَالَ له النَّبيُّ ﷺ : «يا ثَوْبَانُ ، المَرءُ يُحْشَرُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» (١) .

ويَقُولُ عَليُّ بنُ أبي طَالِبٍ رضي الله عنه حِينَ سُئلَ : «كَيفَ كَانَ حُبكُم للنَّبيِّ ﷺ ؟» قَالَ : «كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ أَحَبَّ إلَيْنا مِنْ أَمْوَالِنَا وأَوْلادِنَا وآبَائِنا وأُمَّهاتِنَا ، وأَحَبَّ إلَينا

(١) أصله عند الترمذي في اسنن عن أنس بن مالك وعن أبي ذر رضي الله عنهما ، وفي الصحيحين عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه .

من المَاءِ البَارِدِ علَى الظَّمَأ» [١] . هَذَا ما دَعَا أَبَا سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبلَ إسْلَامِهِ أنْ يَقُولَ : «مَا رَأَيتُ أحَدًا مِنْ النَّاسِ يُحِبُّ أحَدًا كَحُبِّ أصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» [٢] .

لَقَد أصَابَ العَرَجُ يَومَ أُحُدٍ إحْدَى رِجْلَي طَلْحَةَ ابنِ عُبَيدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أثناءَ دِفَاعِه عَنْ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولَـمَّا حَمَلَ طَلْحَةُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَلَّفَ استقَامَةَ المَشْيِ أدَباً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِئَلَّا يَشُقَّ على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فاسْتَوَتْ رِجْلُه العَرجَاءُ لهَذَا التَّكَلُّفِ ، فشُفِيَ من العَرَجِ جَزَاءَ أدَبِهِ [٣] .

وكَذلكَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : «مَا بَزَقْتُ عَلَى

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٤٢٢/٢) .
(٢) الرحيق المختوم للمباركفوري .
(٣) متفق عليه .

يَمِينِي مُنذُ أَسلَمتُ ، أدَباً مع النَّبيِّ ﷺ ؛ لأنَّه صَافَحَ بيَدِهِ النَّبيَّ ﷺ (١) .

وهذا الصِّدِّيقُ الأَكبرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حَديثِ الهِجْرَةِ يَقُولُ : «كُنَّا في الهِجْرَةِ ، وأَنا عَطِشٌ ، فجِئْتُ بمَذْقَةِ لَبَنٍ ، فنَاوَلتُها للنَّبيِّ ﷺ ، وقُلتُ له : اشْرَبْ يا رَسُولَ اللَّهِ» ، يَقُولُ أبو بَكْرٍ : «فَشَرِبَ النَّبيُّ ﷺ حتَّى ارْتَوَيْتُ (٢) .

بَلْ اسْمَعْ إلى ما هُوَ أَعجَبُ من هذا !! لَمَّا أسْلَمَ أبو قُحَافَة ـ أبو أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ بَكَى الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فقَالُوا له : «هَذا يَومُ فَرَحٍ وسُرُورٍ ؛ لإسْلَامِ أَبِيكَ والحَمدُ للَّهِ علَى نَجاتِه من النَّارِ» ، فقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «واللَّهِ لَإِسْلَامُ

(١) دلائل النبوة .
(٢) دلائل النبوة .

أبي طَالِبٍ عَمِّ النَّبيِّ ﷺ أَحَبُّ إلَيَّ من إسْلَامِ أبي ؛ لأنَّه كَانَ يَسُرُّ النَّبيَّ ﷺ إسلَامُهُ .

فَوَاللَّـهِ لَوْ حَقَّقَت أُمَّـةُ هذا النَّبيِّ الكَريمِ ﷺ الأدَبَ في خَاصَّةِ نَفسِهَا مَعَه ﷺ ؛ لاستَقامَتْ لَهَا الدُّنيا كُلُّها ، ولَدَانَ لَهَا العَرَبُ والعَجَمُ .

فهَذا أبو طَاهِرٍ السلفيُّ ، لا تَبدُو منه جَفوَةٌ لأحَدٍ ويَجلِسُ لَحَديثِ النَّبيِّ ﷺ ، فلا يَشرَبُ مَاءً ولا يَبزُقُ ولا يَتكَلَّمُ بغَيرِ حَديثِ النَّبيِّ ﷺ ، ولا يَتورَّكُ ولا تَبدُو لَه قَدَمٌ ، وقد جَاوَزَ المائَةَ ، أدَباً مع مَقَامِ المُصْطَفَى ﷺ وإجْلَالاً لَحَديثِهِ ﷺ . فمَنْ أرَادَ العِلمَ والفِقْهَ بغَيرِ أدَبٍ ؛ فقَد اقْتَحَمَ أنْ يَكذِبَ على اللَّـهِ ورَسُولِهِ ، كَمَا قَالَ البُوشَنْجِي .

فَواللَّـهِ كَمْ من أُمَّةِ النَّبيِّ ﷺ مِنْ قَتيلٍ وسَلِيبٍ وجَريحٍ ، ومُصَابٍ وأَسِيرٍ ومُحتَلٍ ، ويَقُولُونَ : «مِنْ أَينَ أُتِينا ومِنْ أينَ دُهِينَا ؟ ومِنْ أينَ أُصِبْنا ؟ لا وبَلْ ، وحِمَى جَنَابِ المُصْطَفَى ﷺ يُنتَهَكُ ، والأُمَّـةُ تُحِيلُ هذا إلى سَفَهِ الكَافِرِ وحُمْقِ المُلْحِدِينَ ، وتَنسَى سُوءَ أدَبِهَا مَعَ نَبيِّ رَبِّها . فيالَيْتَنَا تَحلَّيْنا بأدَبِ الجَمَادَاتِ والعَجْمَاوَاتِ مَعَ النَّبيِّ ﷺ .

أَخرَجَ البُخَارِيُّ وأصْحَابُ السُّنَنِ عن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللَّـهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، كَانَ النَّبيُّ ﷺ قَبلَ صُنعِ المِنْبَرِ الشَّريفِ ، يَخطُبُ قَائماً ، مُعتَمِداً على جِذْعِ نَخْلٍ ، يَضَعُ يَدَهُ الشَّريفَةَ عَلَيه عِندَمَا يَشعُرُ بالتَّعَبِ مِنْ طُولِ الوُقُوفِ ، فلَمَّا صُنعَ له المِنْبَرُ الشَّريفُ ، وخَرَجَ ﷺ يُريدُ المِنْبَرَ لِيَخطُبَ عَلَيه أَوَّلَ خُطبَةٍ ، وجَاوَزَ الجِذْعَ ، حَنَّ الجِذْعُ حَنيناً شَديداً

كَحَنينِ النَّاقَةِ ، حتَّى سَمِعَهُ أهْلُ المَسجِدِ ، وصَاحَ صِياحاً مُؤلِـمَـاً حتَّى تَشَقَّقَ ، وارْتَجَّ المَسجِدُ ، وتَسَاقَطَ الغُبَارُ من سَقفِهِ ، فنَزَلَ ﷺ من على المِنْبَرِ ، وضَمَّ الجِذْعَ إلَيه واحْتَضَنَهُ حتَّى هَدَأَ وسَكَنَ ، وقَالَ ﷺ : «إنَّ هَذِهِ النَّخْلَةُ إنَّما حَنَّتْ شَوْقاً إلَى رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، لَـمَّـا فارَقَهَا ، فوَاللَّـهِ لَوْ لَمْ أَنزِلْ إلَيْهَا فأعْتَنِقَهَا لَـمَا سَكَنَتْ إلَى يَومِ القِيامَةِ» (١) .

كَانَ الحَسَنُ البَصْريُّ إذا حَدَّثَ بهَذا الحَديثِ ، بَكَى ، ثُمَّ قَالَ : «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ ؛ الخَشَبَةُ تَحِنُّ إلَى رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ شَوْقاً إلَى لِقَائِهِ ، فَأَنتُمْ أَحَقُّ أنْ تَشتَاقُوا إلَيهِ .

وحَنَّ إلَيه الجِذعُ شَوْقاً ورِقَّةً ... ورَجَّعَ صَوْتاً كَالعِشَارِ مُرَدِّدَا
فبَادَرَهُ ضَمَّـاً فقَـرَّ لِوَقْتِهِ ... لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

(١) متفق عليه .

وأُلْقِيَ حَتَّى فِي الجَمَادَاتِ حُبُّهُ فكَانَتْ لإِهْدَاءِ السَّلَامِ لَهُ تُهْدَى
وفَارَقَ جِذْعاً كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهُ فَأَنَّ أَنِينَ الأُمِّ إِذْ تَجِدُ الفَقْدَا
يَحِنُّ إِلَيهِ الجِذْعُ يَا قَوْمُ هَكَذَا أَمَّا نَحْنُ أَوْلَى أَنْ نَحِنَّ لَهُ وَجْدَا
إِذَا كَانَ جِذْعٌ لَمْ يُطِقْ بُعْدَ سَاعَةٍ فَلَيْسَ وَفَاءً أَنْ نُطِيقَ لَهُ بُعْدَا

والعَجَبُ أَنْ يَتأَدَّبَ مَعَ المُصْطَفَى ﷺ البَهَائمُ والدَّوَابُّ ، أَخرَجَ أحمَدُ وأبو يَعْلَى والبَزَّارُ والطَّبَرانِيُّ في الأَوْسَطِ عن عَائِشَةَ أُمِّ المُؤمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَت : «كَانَ لِآلِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحْشٌ ، فإِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَعِبَ وذَهَبَ وجَاءَ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَبَضَ فلَمْ يَتَرَمْرَمْ (يَتَحَرَّكْ) ، مَا دَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في البَيْتِ» (١) .

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند ، والبزّار في المسند ، والطبراني في الأوسط .

وأَخرَجَ البَيْهَقيُّ ، عن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللَّـهِ ﴿ ، أنَّ نَاضِحاً (إبِلاً) لبَعضِ بَنِي سَلَمَةَ ، اغْتَلَم (هَاجَ) فصَالَ عَلَيهم وامْتنَعَ ، حتَّى عَطشَتْ النَّخْلُ ، فشَكَوْا إلَى النَّبيِّ ﷺ فذَهَبَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ حتَّى بَلَغَ بَابَ النَّخْلِ ، فقِيلَ يا رَسُولَ اللَّـهِ : «لَا تَدْخُلْ ، فَإنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ مِنْهُ» ، فقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «ادْخُلُوا ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ» ، فَلَمَّا رَآهُ الجَمَلُ ، أَقْبَلَ يَمشِي وَاضِعاً رَأسَهُ حَتَّى قَامَ بَينَ يَدَيْهِ ، فسَجَدَ ، فقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «ائْتُوا جَمَلَكُمْ فَاخْطِمُوهُ وأَحْسِنُوا عَلَفَهُ ، ولَا تَشُقُّوا عَلَيهِ فِي العَمَلِ» ، فقَالَ أبو بَكْرٍ رضي الله عنه : «يا رَسُولَ اللَّـهِ ، كَأنَّهُ عَلِمَ أَنَّكَ نَبيٌّ» ، فقَالَ ﷺ : «مَا بَينَ لَابَتَيْهَا أَحَدٌ إلاَّ يَعْلَمُ أَنِّي نَبيٌّ ، إلاَّ كَفَرَةُ الجِنِّ والإنْسِ» (١) .

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة .

سَدادُ المُسلِم

إنَّ تَزكِيَةَ النُّفوسِ بالتَّحَلِّي بالأخْلاقِ الحَسَنَةِ ، والتَّخَلِّي عنْ سَيِّئِهَا مَطلَبٌ عَظِيمٌ ، وهو رُبْعُ الرِّسالَةِ المُحَمَّديَّة . الخُلُقُ الحَسَنُ ، صِفَةُ سيِّدِ المُرسَلينَ ، وأفْضَلُ أعْمَالِ الصِّدِّيقِينَ ، وهو علَى التَّحقِيقِ شَطْرُ الدِّينِ ، وثَمَرَةُ مُجاهَدَةُ المُتَّقينَ ، ورِياضَةُ المُتعَبِّدينَ .

الأخْلَاقُ الزَّاكيَةُ الجَميلَةُ هي الأبْوَابُ المَفتُوحَةُ من القَلبِ إلَى نَعيم الجِنَانِ وجِوَارِ الرَّحْمَنِ وتَزكِيَةُ النُّفُوسِ أَصعَبُ من عِلَاجِ الأبْدانِ وأَشَدُّ ، فمَنْ زَكَّى نَفسَهُ بالرِّياضَةِ والمُجَاهَدَةِ والخِلوَةِ ، التي لَمْ يَجِيءْ بها الرُّسُلُ ؛ فهو كَالمَريضِ الذي يُعالِجُ نَفسَهُ برَأيِهِ ، وأينَ يَقَعُ رَأيُهُ من مَعرِفَةِ الطَّبِيبِ؟ فالرُّسُلُ أَطِبَّاءُ القُلُوبِ ، فلا سَبيلَ إلى تَزكِيَتِها وصَلاحِها

إلاَّ مِنْ طَريقِهِم ، وعلى أَيدِيهِم ، وبمَحْضِ الانْقِيادِ والتَّسْليمِ لَهُم ، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١) ، لَعَلَى دِينٍ عَظيمٍ لا دِينَ أَحَبُّ إليَّ ولا أَرْضَى عِنْدي مِنْه ، وهو دِينُ الإِسْلَامِ ، فانْظُرْ رَعَاكَ اللَّهُ ، كَيفَ جَعَلَ الدِّينَ كُلَّهُ خُلُقاً ؟ فمَنْ زَادَ عَلَيكَ في الخُلُقِ ، فقَد زَادَ عَلَيكَ في الدِّينِ ، حَقَّاً إنَّه أَدَبُ القُرآنِ .

إنَّكَ يا مُصْطَفَى رَبِّكَ علَى الخُلُقِ الذي آثَرَكَ اللَّهُ به في القُرآنِ ، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) ، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٣) ، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (٤) ،

(١) سورة القلم ، الآية : ٤ .
(٢) سورة الحجر ، الآية : ٨٨ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .
(٤) سورة النحل ، الآية : ١٢٥ .

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (١) ، قَالَ أَنَسُ بنُ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «هُوَ الرَّجُلُ يَشْتُمُهُ أَخُوهُ ، فَيَقُولُ لَهُ : إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ ، وإِنْ كُنْتَ صَادِقاً فَغَفَرَ اللَّهُ لي» (٢) .

﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣) ، قَالَ جَعْفَرُ بنُ مُحمَّد : «أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمَكَارِمِ الأَخْلاقِ ، ولَيسَ في القُرآنِ آيَةٌ أجمَعُ لمَكَارِمِ الأَخْلاقِ من هذه الآيةِ .

(١) سورة فصلت ، الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ، الجزء الرابع .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩ .

قَالَ أَنَسُ بنُ مَالِك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقَاً» (١) ، وقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «مَا مَسَسْتُ دِيبَاجَاً ولَا حَرِيرَاً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ولَا شَمَمْتُ رَائِحَةً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ولقَد خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ ، فمَا قَالَ لِي قَطُّ أُفٍّ ؛ ولا قَالَ لِشَيءٍ فَعَلتُهُ : لِمَ فَعَلتَه ؟ ولا لِشَيءٍ لَمْ أَفْعَلهُ : أَلَا فَعَلتَ كَذَا ؟» (٢) . ﴿وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (٣) .

وعِندَ مُسلِمٍ عن النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : سَألْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ البِرِّ والإِثْمِ ، فقَالَ : «الْبِرُّ

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٥٢ .

حُسْنُ الخُلُقِ ، والإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَليه النَّاسُ» (١) . فقَابَلَ البِرَّ بالإِثْمِ ، وأَخبَرَ أَنَّ البِرَّ حُسْنُ الخُلُقِ ، والإِثْمَ حَوَازُّ الصُّدُورِ ، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ حُسْنَ الخُلُقِ : هو الدِّينُ كُلُّهُ ، وهو حَقائِقُ الإِيمَانِ ، وشَرائِعُ الإِسْلَامِ ، ولهذا قَابَلَهُ بالإِثْمِ .

وعندَ الطَّبَرانيِّ بسَندٍ صَحيحٍ عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ في رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وإِنْ كَانَ مُحِقًّا وبِبَيْتٍ في وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وإِنْ كَانَ مَازِحاً ، وبِبَيْتٍ في أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ» (٢) ، فجَعَلَ البَيتَ العُلْوِيَّ جَزاءً

---

(١) رواه مسلم عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وعند المنذري في الترغيب والترهيب ، وعند الهيثمي في مجمع الزوائد عن وابصة ابن معبد الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢) سنن النسائي وأبو داود عن فضالة بن عبيد وأبي أمامة الباهلي وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ .

لأَعْلَى المَقامَاتِ الثَّلاثَةِ ، وهيَ حُسْنُ الخُلُقِ ، والأَوْسَطَ لأَوْسَطِهَا ، وهو تَركُ الكَذِبِ ، والأَدْنَى لأَدْنَاهَا ، وهو تَركُ المُمَارَاةِ والمُجَادَلَةِ ، وإنْ كَانَ مَعَه حَقٌّ ، ولا رَيبَ أنَّ حُسْنَ الخُلُقِ مُشْتَمِلٌ على هَذَا كُلِّهِ .

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١) ، ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) .

عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «إنَّ العَبْدَ لَيَبلُغُ بِحُسْنِ الخُلُقِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الآخِرَةِ وشَرَفَ المَنازِلِ ، وإنَّهُ لَضَعِيفٌ في العِبَادَةِ» (٣) . اللَّهُ أَكْبَرُ ، فَلْيَهْنَأْ أَصْحَابُ

(١) سورة الكهف ، الآية : ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٤ .

(٣) الترغيب والترهيب للمنذري (٣/٣٥٣) ، المتجر الرابح للدمياطي (٢٦٩) ، مجمع الزوائد للهيثمي (٨/٥٢٧) .

الخُلُقِ الرَّفِيعِ بِمِثْلِ هَذهِ الكَرَامَةِ !! ، وصَدَقَ يَحْيَى ابنُ مُعَاذٍ عندَما قَالَ : «سُوءُ الخُلُقِ سَيِّئَةٌ لا تَنفَعُ مَعَهَا كَثرَةُ الحَسَنَاتِ ، وحُسْنُ الخُلُقِ حَسَنَةٌ لا تَضُرُّ مَعَهَا كَثرَةُ السَّيِّئَاتِ» .

نَعَم واللَّهِ إنَّهُ الجُودُ ، لكنَّه في الأَخْلاقِ ، ففي سِعَةِ الأَخْلاقِ كُنوزُ الأَرْزَاقِ . فالمُؤمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ ، كالجَمَلِ الأَنِفِ ، إنْ قِيدَ انْقَادَ ، وإذَا أُنِيخَ علَى صَخْرةٍ اسْتَنَاخَ [1] .

قَالَ الجُنَيدُ : «أَربَعٌ تَرفَعُ العَبدَ إلى أَعلَى الدَّرَجَاتِ وإنْ قَلَّ عَمَلُه وعِلْمُهُ : الحِلْمُ والتَّوَاضُعُ والسَّخَاءُ وحُسْنُ الخُلُقِ ، وهو كَمَالُ الإيمَانِ» .

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٦/٢٧٦٤) ، شرح السنة للبغوي (٦/٤٨٠) ، الجامع الصغير للسيوطي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

قَالَ عَطَاءُ بنُ رَبَاحٍ : «مَا ارْتَفَعَ مَنْ ارْتَفَعَ إلاَّ بالخُلُقِ الحَسَنِ ، ولَمْ يَنَلْ أَحَدٌ كَمَالَه إلاَّ المُصْطَفَى ﷺ» .

قَالَ الأَحْنَفُ بنُ قَيْسٍ : «وَجَدتُ الحِلْمَ أَنْصَرَ لي من الرِّجَالِ» ، فقَالَ له رَجُلٌ : «عَلِّمنِي الحِلْمَ يا أبا بَحْرٍ» ، فقَالَ : «هو الذُّلُّ يا ابنَ أَخِي ، أَتَصْبِرُ عَلَيه؟!!» .

ومن عَجيبِ خَبرِهِ أنَّ رَجُلاً شَتَمَه ، وجَعَلَ يَتبَعُه حتَّى بَلَغَ حَيَّه ، فقَالَ الأَحْنَفُ : «يا هَذَا ، إنْ كَانَ بَقِيَ في نَفسِكَ شَيءٌ فهَاتِهِ وانْصَرِفْ ؛ لا يَسْمَعُكَ بَعضُ سُفَهَائِنَا فتَلقَى مَا تَكْرَهُ» .

أيُّ نَفسٍ حَيِيَّةٍ هذه ، أيُّ جُودِ خُلُقٍ هذَا ، واسمع ماذا يَقُولُ : «مَنْ لَمْ يَصْبِرْ علَى كَلِمَةٍ سَمِعَ كَلِماتٍ ، ورُبَّ غَيظٍ قد تَجرَّعتُهُ مَخافَةَ ما هو أَشَدُّ مِنْه» .

إنَّ تَزكِيَةَ النُّفُوسِ وتَعاهُدَها بالخَيرِ والإصْلَاحِ من خَيرِ الأَعْمَالِ وأَزْكَاهَا عِندَ المَلِيكِ المُقْتَدِرِ ، فالنُّفُوسُ الزَّاكِيَةُ ، هي التي زَكَتْ بِطاعَةِ اللَّهِ ، ونَبَتَتْ على الطَّهَارَةِ ، والتَّخَلُّصِ من عَلائِقِ الدُّنيَا ، وهي التي لا تُخرِجُ عن عِلْمٍ ، ولا تُبعِدُ عن وَاجِبٍ ، ولا تُعَطِّلُ سُنَّةً ، فتَزكِيَةُ النَّفسِ وتَرقِيَتُها إِحْدَى الخِصالِ المُوجِبَةِ لذَوْقِ طَعْمِ الإيمَانِ ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١) ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (٢) ، ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٣) .

---

(١) سورة الشمس ، الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة الأعلى ، الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

(٣) سورة طه ، الآيتان : ٧٥ ، ٧٦ .

وقَد كَان من دُعائِه ﷺ : «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا ومَوْلَاهَا» (١) .

وعِندَ الطَّبَرانيِّ عن أُسامَةَ بنِ شَريكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ النَّاسَ لَمْ يُعْطَوْا شَيئاً خَيراً مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ» (٢) .

وعَن أَبي عَنْبَسَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِندَ الطَّبَرانيِّ بسَنَدٍ حَسَنٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، وآنِيَةُ رَبِّكُمْ قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ، وأَحَبُّهَا إِلَيْه أَلْيَنُهَا وأَرَقُّهَا» (٣) .

---

(١) أصله في مسلم عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢) الطبراني في الكبير ، الجامع الصغير للسيوطي عن أسامة ابن شريك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي عن أبي عتبة الخولاني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِندَ أَبي يَعْلَى ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ ، ويُؤْمَنُ شَرُّهُ ، وشَرُّكُمْ مَنْ لا يُرْجَى خَيْرُهُ ولا يُؤْمَنُ شَرُّهُ» (١) .

فوَاللَّهِ مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ في مِيزَانِ العَبدِ يَومَ القِيامَةِ أَثقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ (٢) ، وإنَّ صَاحِبَ الخُلُقِ الحَسَنِ لَيَبلُغُ دَرَجَةَ الصَّوَّامِ القَوَّامِ (٣) ، فمَنْ رُزِقَ السُّهُولَةَ في خُلُقِه والسَّمَاحَةَ في طَبْعِهِ ، فإنَّهُ مُحرَّمٌ على النَّارِ .

أَخْرَجَ الحَاكِمُ في المُستَدرَكِ والبَيْهَقِيُّ في السُّنَنِ عن أَبي

(١) سنن الترمذي ومجمع الزوائد للهيثمي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وفي مسند أبي يعلى عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
(٢) سنن التزمذي والجامع الصغير للسيوطي عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
(٣) مسند أحمد ، الجامع الصغير للسيوطي ، مجمع الزوائد للهيثمي ، والمتجر الرابح للدمياطي ، عن عبد اللَّه بن عمرو ابن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ قَالَ : «مَنْ كَانَ سَهْلاً هَيِّناً لَيِّناً ، حَرَّمَهُ اللَّهُ علَى النَّارِ» (١) .

قَالَ الفُضَيْلُ : «لَأَنْ يُصَاحِبْني فَاجِرٌ حَسَنُ الخُلُقِ ، أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ يَصْحَبَنِي عَابِدٌ سَيِّءُ الخُلُقِ» ، وقَالَ الحَسَنُ : «حُسْنُ الخُلُقِ : بَسْطُ الوَجْهِ ، وبَذْلُ النَّدَى ، وكَفُّ الأذَى ، وبَذلُ الجَمِيلِ ، وكَفُّ القَبِيحِ ، والتَّخَلِّي عن الرَّذَائِلِ ، والتَّحَلِّي بالفَضَائِلِ» .

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : «حُسْنُ الخُلُقِ ، هو الرِّضَا عن اللَّهِ تَعَالَى ، وأدْنَاهُ : الاحْتِمَالُ ، وتَركُ المُكَافَأةِ ، والرَّحْمَةِ للظَّالِمِ ، والاسْتِغْفَارُ له والشَّفَقَةُ علَيه» .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

قَالَ عَليُّ بنُ زَيْدٍ : «أَغْلَظَ رَجُلٌ من قُرَيشٍ لِعُمَرَ ابنِ عَبدِ العَزِيزِ القَوْلَ ، فَأطْرَقَ عُمَرُ زَمَاناً طَويلاً رَأسَهُ ، ثُمَّ قَالَ : «أَرَدْتَ أَنْ يَسْتَفِزَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِعِزِّ السُّلْطَانِ ، فَأَنَالُ مِنْكَ اليَوْمَ مَا تَنَالُهُ مِنِّي غَداً» . لِلَّـهِ دَرُّكَ مِنْ مَلِكٍ عَادِلٍ .

لَنْ يُدْرِكَ المَجْدَ أَقْوَامٌ وإِنْ كَرُمُوا ... حَتَّى يَذِلُّوا وَإِنْ عَزُّوا الأَقْوَامِ
وَيُشْتَمُوا فَتَرَى الأَلْوَانَ مُسْفِرَةً ... لا صَفْحَ ذُلٍّ ولَكِنْ صَفْحَ أَحْلامٍ

ضَرَبَ رَجُلٌ قَدَمَ حَكيمٍ فَأَوْجَعَهُ ، فَلَمْ يَغْضَبْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فقَالَ : «أَقَمْتُه مَقَامَ حَجَرٍ تَعَثَّرتُ بِه ، فَذَبَحتُ الغَضَبَ» .

سَأُلزِمُ نَفسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ... وإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ عَلَيَّ الجَرائِمُ
ومَا النَّاسُ إلاَّ واحِدٌ من ثَلاثَةٍ ... شَرِيفٌ ومَشْرُوفٌ ومِثْلِي مُقَاوِمُ
فأَمَّا الذي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ ... وأَتَّبِعُ فيهِ الحَقَّ والحَقُّ لازِمُ

وأَمَّا الذي دُوني فإنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ إجَابَتِه عِرْضِي وإنْ لَامَ لَائِمُ
وأَمَّا الذي مِثْلِي فإنْ زَلَّ أَوْ هَفَا تَفَضَّلتُ إنَّ الفَضْلَ بالحِلْمِ حَاكِمُ

حَقَّاً إنَّها دُرَرٌ من التَّاريخِ تُلتَقَطُ ، وعَجَائبٌ من أخْلَاقِ الرِّجَالِ تُسَطَّرُ ، فلَيسَ الحَليمُ مَنْ إذَا ظُلِمَ حَلِمَ ، حتَّى إذَا قَدِرَ انتَقَم ، ولكنَّ الحَليمَ مَنْ إذَا ظُلِمَ حَلِمَ ، حتَّى إذَا قَدِرَ عَفَا ، ﴿وَأَنْ تَعْفُو أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (١) ، فإذَا أرَادَ اللَّهُ أنْ يُتْحِفَ عَبداً ، قَيَّضَ لَهُ مَنْ يَظلِمُه . فَليَكُنْ العَفْوُ مُصَاحَباً بالإحْسَانِ ، فمُقَابَلَةُ الإسَاءَةِ بالإحْسَانِ مَنْ فَضَائلِ أعْمَالِ المُقرَّبِينَ ، واخْتيَارُ الصِّدِّيقِينَ ، ومُنتَهَى دَرَجاتُ الصَّالِحينَ .

سَبَّ رَجُلٌ عَليَّ بنَ الحُسَينِ بنَ عليٍّ رضي الله عنهم ، فرَمَى

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٧ .

إلَيه بخَمِيصَةٍ كَانَت عَلَيه ، وأَمَرَ لَه بألْفِ دِرْهَمٍ ، فقَالَ بَعضُهُم : «جُمِعَ لَه خَمسُ خِصَالٍ مَحمُودَةٍ ، الحِلْمُ ، وإسْقَاطُ الأذَى ، وتَخليصُ الرَّجُلِ ممَّا يُبعِدُهُ عن اللَّهِ تَعالَى ، وحَمْلُهُ على النَّدَمِ والتَّوْبَةِ ، ورُجُوعُهُ إلَى المَدحِ بَعدَ الذَّمِّ ؛ اشْتَرَى جَميعَ ذَلكَ بشَيءٍ من الدُّنيَا يَسيرٍ» . كَيفَ لا وهُم ذُرِّيَّةٌ بَعضُهَا مِن بَعضٍ ، فمَنْ أَبُوهُ ، ومَنْ جَدُّهُ ﷺ ؟!! .

واسْمَعْ إلى إبرَاهيمَ التَّيْميِّ وهُو يَقُولُ : «إنَّ الرَّجُلَ لَيظلِمُني فأَرحَمُهُ» ، وهَذا إحْسَانٌ وَرَاءَ العَفْوِ ؛ لأنَّه يَشتَغِلُ قَلبُهُ بتَعَرُّضِه لِمَعصِيَةِ اللَّهِ تَعالَى بالظُّلمِ ، وأنَّه يُطَالَبُ يَومَ القِيامَةِ ، فلا يَكُونُ له جَوَابٌ .

قَالَ الفُضَيلُ : «مَا رَأيتُ أَزْهَدَ مِنْ رَجُلٍ منْ أهْلِ

خُراسَانَ ، جَلَسَ إليَّ في المَسجِدِ ، ثُمَّ قَامَ لِيَطُوفَ ، فسُرِقَت دَنانِيرٌ كَانَت مَعَه ، فجَعَلَ يَبكِي ، فقُلتُ : أَعَلَى الدَّنانِيرِ تَبكِي؟ فقَالَ : «لا ، ولَكنْ مَثَّلتُني وإيَّاهُ بَينَ يَدَي اللَّـهِ عَزَّ وجَلَّ ، فأشْرَفَ عَقلِي علَى إدْحَاضِ حُجَّتِه ، فبُكَائي رَحمَةً لَهُ» . سُبْحانَ اللَّـهِ العَظيمِ ، مِمَّ خُلِقَ هَؤلاءِ ؟!! سُبْحانَ مَنْ سَخَرَّهُم وأَوْجَدَهُم !! .

اشْتَرَى الرَّبيعُ بنُ خُثَيمٍ فَرَساً بثَلاثِينَ ألفاً فغزَا عَلَيها ، ثُمَّ أَرسَلَ غُلامَهُ يَسَار يَحتَشُّ وقَامَ يُصلِّي ، ورَبَطَ فَرَسَه ، فجَاءَ الغُلامُ ، فقَالَ : «يا رَبيعُ أينَ فَرَسُك ؟» قَالَ : «سُرِقَتْ يا يَسَار» . قَالَ : وأَنتَ تَنظُرُ إليها !!» قَالَ : «نَعَمْ يا يَسَار ؛ إنِّي كُنتُ أُناجِي رَبِّي عَزَّ وجَلَّ ، فلَمْ يَشغَلنِي عن مُناجَاةِ رَبِّي شَيءٌ ، اللَّهُمَّ إنَّه سَرَقَني ، ولَم أَكُنْ لِأسْرِقَه ، اللَّهُمَّ

إنْ كَانَ غَنيًّا فاهْدِهِ ، وإنْ كَانَ فَقيراً فأَغْنِهِ» ، ثَلاثَ مرَّاتٍ ، لِلَّـهِ دَرُّكَ يا أبَا يَزِيدٍ ! واللَّـهِ إنَّ الكَلِماتِ لَتَعجَزُ عن تَصويرِ جَلَالِ هذا المَشهَدِ ، أمَا واللَّـهِ لَوْ رَآكَ مُحمَّدٌ ﷺ يا رَبيعُ لَفَرِحَ بِكَ ، هكَذا قَالَ أُسْتاذُكَ ابنُ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

الفهرس

المقـــدمة ٣

المـــــروءة ٢١

الإبريز المصَفَّى ٤٩

لا أرفع صوتي إلاَّ كأخ السِّرار ٧٣

سـداد المسلم ٩٧

الفهـــــرس ١١٤

للتواصل مع المؤلف

wab2010@w.cn

تنسيق وإخراج أبو حمزة
hamzawi999@hotmail.com